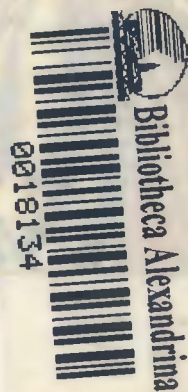


الف ليلة وليلة

حسن جوهير محمد أحمد برافق

أمين أحمد المطار

١١



الف ليلة وليلة

الجزء الحادى عشر

على الزئبق دليلة المحتالة

كتبه

حسن جوهـر محمد أحمد برافق

أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



دار المعارف

رسوم: الفنانة النمساوية ستيللا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.٢٠٠٤ع.

دى عشر

صفحة

ببق ودليلة المحتالة ١٧٦:٥



على الزئبق ودليلة المحتالة

١

وَقَدَ إِلَى بَغْدَادَ مِنْ مِصْرَ فِي عَهْدِ أَحْمَدَ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ رَجُلٌ
اسْمُهُ أَحْمَدُ الدَّنْفُ وَرَفِيقٌ لَهُ اسْمُهُ حَسَنُ شُومَانٍ وَكَانَ هَذَانِ الرَّجُلَانِ
قَدْ اشْتَهَرَا بِبِرَاعَةِ الْحِيلَةِ ، وَالْمَهَارَةِ فِيمَا يَفْعَلَانِ مِنْ أَعْمَالٍ غَرِيبَةٍ عَجِيبَةٍ
وَصَلَتْ إِلَى مَسَامِعِ الْخَلِيفَةِ ، فَأَعْجَبَ بِذِكَاؤِهِمَا ، وَفَرَّطَ نَشَاطُهُمَا ،
وَبَلَغَ بِهِ الْعَجَبُ أَنْ عَاهَدَ إِلَيْهِمَا بِبَعْضِ أَعْمَالِ الضَّبَطِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ
الذِّكَاةَ ، وَالنَّبَاهَةَ ، وَسَعَةَ الْحِيلَةِ !!

فَعَيَّنَ أَحْمَدُ الدَّنْفُ مَقْدَمًا عَلَى مَيْمَنَةِ بَغْدَادَ ، وَعَيَّنَ حَسَنُ
شُومَانُ مَقْدَمًا عَلَى مَيْسَرَتِهَا ؛ وَأَقَامَ لِكُلِّ مِنْهُمَا إِيوَانًا بِهِ أَرْبَعُونَ قَاعَةً ،
لَأَنَّهُ كَانَ لِكُلِّ مِنْهُمَا أَرْبَعُونَ تَابَعًا ، وَرَتَّبَ لِكُلِّ مِنْهُمَا رَاتِبًا شَهْرِيًّا

قدره ألف دينار ، عدا رواتب الغذاء والكساء . واحتفل في المدينة بتعيينهما هذا ، فخرج الوالى في موكب حافل وعن يمينه أحمد الدنف ، وعن يساره حسن شومان ، ومن خلفهم الأتباع ، وأمامهم مناد ينادى يا أهل المدينة ؛ اعلموا أنه لا مُقدم على ميمنة بغداد إلا أحمد الدنف ، ولا مُقدم على ميسرتها إلا حسن شومان ؛ فدينوا لهما بالطاعة ، وقدموا لهما ما يلزم من المعاونة والاحترام .

وسمعتُ بنداء المنادى ابنة المقدم السابق ، الذى عُيِّن أحمد الدنف فى منصبه بعد موته ؛ وكانت اسمها زينب ؛ فقالت لأُمها : يا أُمى ؛ أستمعين هذا المنادى الذى ينادى بأن أحمد الدنف وحسن شومان - وهما اللذان أتيا إلى بغداد مطرودين من مصر - قد عيّنهما الخليفة فى منصب والدى ، وأعطاهما جميع رواتبه وجرأياته ؟

فقالت الأم - وكان اسمها دليّة :

لقد أعجب الخليفة بمكرهما وألاعبيهما ، والله إن مكرهما وألاعبيهما ليسا شيئاً بجانب مكرى وألاعبي أنا وأخى زريق السّمك .

فقالت زينب :

إن أخاك زريقاً قد ترك ألاعيبه ومقالبه واكتفى بتجارة السمك وبيعه ، وإن ابن أخى أحمد اللقيط لا يزال صغيراً ، لم يُدرّب على حيلنا ومناصبنا ، فإلى متى سنظل ساكتين على حالنا هذا ؟ ! ويأتى الأغراب فيأخذون مناصبنا ، ويتمتعون بما كنّا نتمتع به من مغامٍ وشُهرة ؟ ! !

فقال دليلة :

إن أباك كان أيضاً رئيساً على خزان الحمام الزاجل الذي يروح ويغدو بين مختلف البلاد برسائل الخليفة وهذا الخان به أربعون عبداً لخدمة الحمام ، وأربعون كلباً للحراسة ؛ ولم طبّخ لهم الطعام ، ومن يكون رئيساً لهذا الخان يرتب له رواتب كبيرة ، وتصرف له جرايات حسنة . وأخشى ما أخشاه أن يأخذ أحمد الدنف أو حسن شومان هذا المنصب ، ويتمتعاً أيضاً بما له من رواتب وجرايات .

فقال الابنة :

انهضى إذن ؛ واعملى لنا بعضاً من حيالك التي تخرج الثعبان من شقه ، وأظهرى طرفاً من الأعياب التي تفوقين بها الأعياب إيليس ، حتى يخرج اسمنا ، ويظهر صيغتنا ، ويكون لنا نصيب في رواتب أينا .

فقال دليلة بحماس :

والله يا ابنتي لسوف يرى أهل بغداد الأعياب أقوى من الأعياب أحمد الدنف وحسن شومان ، ومناسر تفوق مناسرهما . ونهضت دليلة من فورها ، فأتت بعباءة صوفية بيضاء خشنة ، فارتدتها ، وتمنطقت عليها بحزام عريض وأخذت إبريقاً فلأته بالماء ، وسدت فوهته بقطعة من الليف وضعت بأسفلها ثلاثة دنائير . وقلدت عنقها بعدد كبير من المسابح ، وأخذت بيدها خرقة متعددة الألوان ، ثم خرجت إلى الطريق تلوح بها وتتظاهر بالتسبيح وهي تقول :

الله ، الله . . .

كما يفعلُ الذاكرون في حَلَمَات الذِّكْرِ .

وظَلَّتْ تَطْلُوفُ بالطَرَفَات ، وتَدخُلُ في حارة بعدَ حارة ، وتُخْرِجُ من زُقَاقٍ إلى زُقَاقٍ ، تَتَحَيَّنُ الفُرَصَ لِفَعْلَةٍ تَفْعَلُهَا ، حَتَّى دَخَلَتْ إلى زُقَاقٍ رُصِفَتْ أرضُهُ ببِلَاط الرخام ، ورُشَّتْ جَوَانِبُهُ بالماء ، وبَصَدْرِهِ بابٌ لَهُ عَتَبَةٌ من المَرْمَرِ ، يَقِفُ بِجَانِبِهَا بَوَابٌ مَغْرِبِي عَجُوز . وارْتَفَعَ صَوْتُ دَلِيلَةٍ تَذْكُرُ الله وتَقُولُ :

الله ، الله !

وأطَلَّتِ الرِّعُوسُ من النَوَافِذِ والطَّيْقَانِ مُسْتَطَلَعَةً أَمْرَ هَذِهِ الشَّيْخَةِ الْمُتَصَوِّفَةِ الَّتِي لَا يَكْفُفُ لِسَانُهَا عَنْ ذِكْرِ الله .
وأطَلَّتْ من نَافِذَةِ الدَّارِ الَّتِي يَقِفُ بِبَابِهَا البَوَابُ المَغْرِبِي شَابَةً "مَلِيحَةً ، رَائِعَةً الجَمَالَ ، وَلَكِنْ يَدُّو عَلَى مَحِيَّاتِهَا الحُزْنَ ، وَهِيَ تَتَرَيَّنُ بِالنَّفِيسِ الغَالِي مِنَ الحُلِيِّ والحُلَلِ ، وَلَحْتِهَا دَلِيلَةٌ فَاتَتْ حَتَّى وَقَفَتْ بِأَسْفَلِ النَافِذَةِ وَهِيَ لَا تَزَالُ تَرُدُّدُ .

الله ! الله !! يا أولياءَ الله !!!

فَقَالَتِ الشَّابَّةُ الَّتِي تَطْلُ من النَافِذَةِ لِجَارِيَةٍ عِنْدَهَا :

انْزِلِي إِلَى الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ البَوَابِ ، وَاسْتَسْمَحِيهِ فِي أَنْ يَأْذَنَ لِهَذِهِ الشَّيْخَةِ المَتَدِينَةِ بِأَنْ تَدْخُلَ إلَيْنَا حَتَّى نَتَبَرَّكَ بِهَا .
فَنَزَلَتْ الجَارِيَةُ إِلَى البَوَابِ وَأَعْلَمَتْهُ بِرَغْبَةِ سَيِّدَتِهَا ؛ فَتَقَدَّمَ البَوَابُ

من دليلة يريدُ تقبيلَ يدها ودعوتها للدخول إلى الدار ، فمنعتهُ دليلةُ وهي تقولُ له :

استغفر الله يا بُنى ، أنت الآن ملحوظٌ من أولياء الله .
فقال الرجل :

اسقني من مائك يا أمي حتى تحلّ علينا بركتك .
فخلعت دليلةُ الإبريق من كتفها وأمالته ، وانتزعت الليفةَ من فمه ، فسقطت الثلاثةُ الدنانيرُ على الأرض ، ومالت للباب طاساً ليُشرب .
ورأى أبو على الدنانيرَ وهي تسقطُ إلى الأرض فالتقطها وقدمها لدليلةَ وهو يقول :

خذى يا سيدتى الشّيخة هذه الدنانير قد سقطت من إبريقك .
فقالت دليلة وهي تلوح بيدها :

أبعدها عني ، إني لا شأنَ لي بأموال الدنيا ، خذها فهي رزقُ
أرسله الله إليك لتوسعَ بها على نفسك !
ففرح البابُ بها ، وكان في معسرة من أمره ، واعتقد أن الله قد أرسلها له عن طريق هذه الشّيخة المباركة ، فدعاهما إلى دخول الدار والصعود إلى سيدته وهو يقول لها :

اشملينا ببركاتك يا سيدتى الشّيخة .
وصحبتُ الجاريةُ دليلةَ حتى أوصلتها إلى سيدتها التي نهضت فرحبتُ بدليلة ودعتها إلى الجلوس بجانبها ، وأمرتُ لها بالطعام والشراب ،

ولكن دليلاً أسرعَ قائلةً :

يا بنيَّتي ؛ إنني صائمة ، فما أُفْطِرُ إلا خمسة أيام في السنة !!
فقلت الشابة :

الله يجعلنا من بركاتك يا خالتي .
فقلت دليلاً :

ستالين ياذن الله ما تتمنين يا ابنتي ، ولكن أخبريني عما بك فإني
أراك حزينةً مشغولةً الحاطر .
فقلت الفتاة :

من أجل ذلك دعوتك التماساً لبركتك ، وطلباً لمشورتك .
قلت دليلاً باهتمام :

عرِّفيني يا ابنتي كل ما يُفْلِقُك ، ويَشْغَلُ خاطرك ، وإن شاء الله
سيزولُ عنك كل ما يُهْمِك ويُكْدِرُك .
فقلت الفتاة :

اعلمي يا خالتي أني متزوجة من الأمير حسن ، وهو يشغل
منصب رئيس الشرطة في ديوان الخليفة . وفي يوم زواجي منه أقسمتُ
عليه ألا يتزوج من غيري قط ، وألا يخالط نساءً سواي . فعاهدني
على ذلك ومرت السنون على زواجنا دون أن أنجب له ولداً ولا بنتاً ، وقد
عاجلت نفسي بكل عتارٍ ودواء سمعت به دون فائدة ؛ فعزن زوجي
لذلك ، وتكدر ، وهددني بأنه سيَتَحَلَّلُ من عهده لي ، ويتزوج

غيرى من تُنجبُ لهُ أولاداً .. وهو الآن مُسافر ، وعند عودته سينفذُ
ما هَدَّ دنى به ، فإذا ترينَ يا خالتي الشيخة فى أمرى ؟
فقلتُ لها دليلة :

ولماذا يا ابنتى لم تذهبي إلى الشيخ أبي الحملات ؟ !!
فقلت الفتاة :

ومن هو يا خالتي الشيخ أبو الحملات ؟
فقلتُ دليلة :

هو الذى إذا زاره مدينٌ يسرَّ اللهُ لهُ دينه ، وإذا زارته عقيمٌ
حملتُ بإذن الله .
فقلت الفتاةُ بلهفمة :

يا ليتنى يا خالتي أستطيعُ الذهابَ إليه !! إني لا أعرفُ مكانه ،
ولا أغادر بيتي إلا نادراً .
فقلتُ :

يا ابنتى إني لن أغادرك حتى آخذك إلى الشيخ أبي الحملات
لتبئنى لهُ همك ، وتخلعنى عليه حملك ، والذى تحماين به - بنتاً
كانت أو ولدًا - يكون تابعاً للشيخ أبي الحملات .
فقلت الفتاة :

والله يا خالتي الشيخة لأتبعنك فيما تُشيرين به على ، عسى أن
يكون اللهُ قد منَّ علىَّ بما أريدُ .

فقلتُ دليلاً :

إذن قُومى فهِبى نفسك للخروج استعداداً لمصاحبتى إلى ضريح
الشيخ أبى الحملات .
فنهضتُ الفتاةُ — وكان اسمها خاتون — ولبستُ ملابسَ خروجها ،
وهى متزينةٌ بأجمل زينة ، متحليةٌ بأثمن الحلى ، وأوصتُ جاريتها
بملازمة المنزل حتى تعودَ من زيارة الشيخ أبى الحملات .
فقلتُ لها الجارية :
سمعاً وطاعةً .

ونزلتُ خاتونُ بصُحبة دليلاً بعد أن تركتُ دليلاً يُبريق الماء الذى
كانتُ تحمله بالدار ، فلما رآهما أبو على البوابُ سألَ سيدتهُ بدهشة :
إلى أين يا سيدتى ؟

قالت :

سأذهب يا أبا على لزيارة الشيخ أبى الحملات . عسى الله أن يفرجَ
عنى ، ويزيلَ غمى ، ويُحلَّ عُقدتى .
قال البوابُ :

اذهبي يا سيدتى ، فهذه الشبيخةُ التى تصُحبك شبيخةٌ مباركةٌ
صالحةٌ قد ظهرَ لى صلاحُها ، وبانتَ لى كرامتُها .
فلما خرجتُ دليلاً وخاتونُ إلى الطريق قالت دليلاً :
يا ابنتى ؛ سأسير أنا فى المقدمة ، وسيبقى أنت من ورأى على بُعد

غير بعيد ، لأننى كلما سرتُ أقبلَ على الناسُ : هذا يريدُ تقبيلَ
يَدَى ، وهذا يريدُ أن يُوفىَ نذرًا نذرَه ، وهكذا ، وأخشى أن يكونَ
فى ذلكَ حرجٌ عليك .

فقالَت خاتونُ :

الرأى لك يا خالى .

ثم سارت دليلةٌ وخاتونٌ من خلفها حتى وصتا إلى سوق التجار ،
وشقت دليلةُ السوقَ وخاتونٌ تتبّعُها ، وعينُ دليلةٍ تلاحظُ ما يفعلُ
جمالُ خاتونٍ وزينتُها فى نفوس التجار البالسين بمناجرهم ، حتى مرّت
على دكان شاب تاجر اسمه التاجرُ حسن ، ورث تجارةً كبيرةً عن أبيه
وكان اسمه التاجرُ محسن . ولحظت دليلةُ أن التاجرَ حسنًا قد أعجبَ
بقوام خاتونَ وجمالها ، وأنه يمتبّعُها بنظراته وعينه لا تكادُ تُفارقها .
فاقتربت دليلةُ من خاتونٍ وقالت لها :

اجلسى يا ابنتى على هذا المقعد الذى بجوار دكان هذا التاجر حتى
أقضى حاجةً لى وأعود إليك .

فقالَت خاتونُ :

سمعًا وطاعةً .

وجلسَت على مقعد بجوار دكان التاجر حسن امتثالاً لأمر دليلةً ،
وغابت دليلةُ لحظةً ثم عادتُ فدخلتُ إلى دكان التاجر ، وكان التاجرُ
لا يزالُ يتأملُ خاتونَ ، ويعجبُ من حسنِها وجمالِها اللذين يبدوان من

خلال نقابها وإزآرها .

وقالتُ دليلة للشاب التاجر :

هل أنت يا سيدى التاجر حسنٌ بنُ التاجر محسن ؟

فقال الشاب :

نعم ، أنا هو ، ما الذى تَبْغين يا سيدتى ؟

فقال دليلة :

لقد دلّنى عليكَ أهلُ الخير ، ومدحُوا لى حسنَ أخلاقك ،
وأشادوا بطيب سَجَاياك . اعلم يا ولىدى أنى كنتُ زوجةً لتاجر غنى
مات ، وخلفَ لى هذه البنتَ التى تجلسُ بجوار الدكان ، وأنا كما تَرى
قد صرتُ ولا همَّ لى إلا ذكرُ الله وعبادته ، وأريدُ أن أزوجَ ابنتى من
شابٍ كريم حتى يطمئن قلبى عليها ، وأنفَرَعُ لما أنا فيه ؛ وقد دلّنى
أهلُ المعروف عليكَ ، وقالُوا : ما ينفعُ لابتلكَ ، ولا يليقُ لها ، إلا
التاجرُ حسنٌ . فجئتُ إليكَ أعرضُ عليكَ الأمرَ ، وصحبتُ معى
ابنتى لتراها سرًّا وهى لم تُغادر دارنا إلا اليوم ، وأنا على استعداد بأن
أمدّكَ بما يلزمُكَ من المال ، وأفتحُ لكَ عوضًا عن الدكان دكانين ،
فما رأيك فى قولى يا ولىدى ؟

فسرّى الفرحُ إلى نفس الشاب لما سمع ذلك الكلامَ من دليلة ،
وقالَ لها :

والله يا سيدتى إن أمى ما زالت منذُ مات والدى تلحُّ علىّ فى أن

تخطب لي لأتزوج ، ولتفرح بي وتطمئن على قبل موتها ، وأنا أقول لها :
إني لن أتزوج إلا ممن تراها عيني ، ويقع عليها اختياري .
فقال دليله :

وأنا لا أمانع يا ولدي في أن أريك ابنتي لتخطبها على حسب
رغبتك ، فهيأ اصحبتي لأريها لك ، وأطمئنك على محاسنها .
فقال الشاب فرحاً :

حسناً يا سيدتي ، فهذه هي رغبتى ، وهذا هو مرادى ؛ انتظريني
لحظة قصيرة أكون بعدها على استعداد لمصاحبتك إلى حيث تريدن .
ودخل الشاب إلى دكانه ، فارتدى أفخر ما كان يحتفظ به فيه
من ملابس ، ووضع في جيب رداؤه كيساً مملوءاً باللدنانير ، وأتى إلى
دليله فقال لها :

هيا بنا يا سيدتي فإني على استعداد لمصاحبتك .
فقال له دليله :

سأسير أنا في المقدمة ، وابنتي تسير من ورائي ، وسر أنت على
مبعدة منها بقدر ما تراه .
فقال الشاب :
سمعاً وطاعة .

وسار التاجر حسن يتبع خاتون ، وخاتون تتبع دليله ، ودليله في
المقدمة تقدح ذهنها ، وتعمل فكرها ، فيما يجب أن تتبع بعد ذلك

من تدبير ، وتتخذ من حُطُوات .

ومرت دليّة في سيرها على مصبغة لرجل يدعى الحاجّ محمدًا ، كانت تعرف أنه يُخصّص جانبًا من داره التي يسكنُ بها لتزول التجار والعُمّال الذين يفدون إليه بالأصباغ من مختلف البلاد . فأشارت إلى خدّاتون أن تنتظرها ، وتقدمت هي فدخلت إلى المصبغة وقالت لصاحبها : هل أنت الحاجّ محمد صاحب المصبغة ؟

قال :

نعم يا سيّدي ؛ هل من خدمة ؟

قالت :

لقد أرشدني أهل الخير إلى أن أقصدك في أمر لتساعدني فيه ، فهذه الفتاة التي تراها واقفة على الجانب الآخر من الطريق هي ابنتي ، وهذا الفتى الذي يقف بالقرب منها هو ابني ، وأنا أواليهما بالتربية والرعاية منذ أن مات والدهما ، وكان لنا دارٌ نسكنُ فيها ، إلا أنها قد صارت على مرّ الزمن ، وتقادم العهد داراً عتيقةً ، في حاجة إلى الإصلاح والتعمير ؛ فأحضرت مهندساً ليعاينها ، ويرى ما يجب اتخاذه بشأنها ، فأشار بصلبها على عيدان من الخشب ، وأمر بخروجنا منها حتى يتمّ تصليحها وترميمها خوفاً من سقوطها علينا .

وقد أشار الخيرون على أن أقصدك لتؤجّر لي غرفتين من طابقك الذي تُخصّصه لضيوفك وعمالك وذلك بصفة مؤقتة حتى يتمّ ترميم

دارنا ، ونأمن على أنفسنا حين السكنى فيها .
 ونظر الصباغُ إلى خاتونَ وإلى التاجر حسن ، وهما واقفان في انتظار
 دليلةَ على مبعدة ، فسرَّه منظرهما ، وأعجبَ بجمانهما ، وودَّ لو
 استطاعَ أن يُضيفَهما بداره ، وينزلُهما بمنزله ، ولكنه قالَ لدليلةَ :
 ولكنَّ الجناحَ الذى تقصدينه يا سيدتى بكلامك هو جناح
 مخصَّصٌ لتزول الضيوف والعُمال . فكيفَ يمكنُك السكنى بأولادك
 فيه ، ومشاركة الرجال إذا حلُّوا به ؟ !

قالت دليلة :

يا بنى ، لا ضيرَ علينَا ؛ فضيوفُك ضيوفُنَا ، ونحنُ لن نَمكثَ
 على هذه الحال طويلاً ، فإن دارنا سرعان ما يتمُّ ترميمُها ، ونعودُ إليها ؛
 وتكونُ بذلك يا سيدتى قد أسديتَ لَنَا معروفًا كبيرًا ، وقدَّمتَ لَنَا يدًا
 لن ننساها .

فقال الصَّبَّاغُ :

قد قبلتُ يا سيدتى ما تُريدِين على الرُحْب والسَّعة ، ولكن انتظري
 حتى أفرغَ من عملى ، وأصحبَكَ إلى دار الضيوف ، أو حتى يأتى
 أحدُ عمَّالى فيحُلِّ محلِّ بالمصبغة ، وبذلك أتمكنُ من مُصاحبتك .

فقالت دليلة :

يا سيدى ؛ إنى أعرفُ دارك هذه ، فاسمُحْ لى أن أذهبَ إليها الآن
 حتى لا أدعَ ولدىَّ هكذا فى عرض الطريق ، وحتى أستطيعَ أن أنقلَ

إليها ما أشاءُ من متاع دارنا قبل حلول المساء .
فقال الصبَّاغُ :

لا بأسَ بما تقولين . خُذِي ؛ هذه هي مَفَاتِيحُ الدار . فالمفتاحُ الكبيرُ لباب الدار الخارجى ، والمفتاحُ الأوسطُ لبابها الداخلى ، والمفتاحُ الصغيرُ لحجرة الضيوف . فاذهبي وأعدى أموركَ ، ورتبى شئونكَ واعتبرى نفسك فى داركَ ، حتى أفرغَ من عمَلِي وأمرَّ عليكم إن شاء الله . فأخذتُ دليلاً مفاتيحَ دار الضيافة من الصَّبَّاغِ ، وانصرفتُ وهى تشكره ، وتدعو لهُ بدوام العز والمقدرة على عمَلِ المعروف .

وسارت دليلاً من جديد ، ومن ورائها سارت زوجةُ صاحب الشرطة ، ومن ورائهما سار التاجرُ حسنٌ حتى انتهت إلى دار ضيافة الصَّبَّاغِ ؛ ففتحتُ بابها الخارجى بالمفتاح الكبير ، ودخلتُ ففتحتُ الباب الداخلى بالمفتاح الثانى ، ثم قالتُ للفتاة التى أتتْ على أثرها :

ادخلى فهذه هى دارُ الشيخ أبى الحملات .

ثم دعتها إلى الدخول إلى إحدى القاعات الداخلية ، وقالت لها :
يا ابنتى ؛ اخلعى إزارَكَ ، وخففى عنك ملابسكَ ، فالشيخُ أبو الحملات لا يُحب إلا من تخفَّفَ من حملهِ ، ويسر من زينته .
ثم انتظرينى حتى أعود إليك .

فقالَتْ لها الفتاةُ :

سمعاً وطاعةً يا خالتى

ثم دخلت إلى القاعة، وخرجت دليلاً إلى التاجر حسن، وكان ينتظرُ
بالباب، فدعته إلى الدخول، وفتحت له قاعة الضيوف، وقالت له :
انتظر حتى أحضر لك ابنتي لتراها .

ثم عادت إلى خاتون ، فلما رأتها خاتون مقبلةً عليها قالت لها :
ها أنا ذى يا خالتي قد خلعتُ إزارى ، وتخففتُ من ثيابى ، فهياً
لنزور الشيخ أبا الحملات .
فقالت دليلاً :

يا ابنتى ؛ إن الشيخ نقيبُ الشيخ أبي الحملات ليس موجوداً
الآن ، ويحل محله ابنه ، وهو ولد عبيط أباه ، أخشى منه عليك .
فقالت الفتاة :

وما الذى تخشين منه يا خالتي ؟
قالت دليلاً :

أخشى أن يرى عليك حليك وزينتك فيخطفها منك ليلعب بها ،
فيتلف بذلك حليتك ، ويشرم أذنك .
فقالت خاتون :

وما العمل ، وقد كنت أود الزيارة قبل أن يفد الزوار ويزدحم
المكان بالناس ؟ !
فقالت دليلاً :

لا بأس يا ابنتى ، اخلعى حليتك وهاتيهما أحفظها لك ، وسأخذُ .

ملا بسك لأعلقها لك على ضريح الشيخ حتى تحلّ عليها البركات .
ثم آتى لأصحابك .

وخرجتُ دليلاً بملا بس الفتاة وحليها فخبأتها بمكان قرب باب
الدار ، ثم دخلتُ إلى التاجر حسن وابتدرته قائلة :
اللهُ يجازي الحاسدين الغيُورين الذين لاهمّ لهمُ إلا حسدُ الناس
ومشاكستهم .

فقالَ التاجرُ حسن :

ما الذى جرّى ؟ !

قالتُ دليلاً :

لقد رآكَ الجيرانُ وأنتَ تدخلُ إلى دارنا ، فحسدونا عليك ؛ وقالوا
لابنتى من فوق سطح الدار : لماذا جاء هذا الشابُّ الأبرصُ إلى داركم ؟
فلما رحّتُ أدعوها لتراها ، وعرفتُها أنك قد جئتَ لخطبتها قالتُ :
إنّنى لا أتزوجُ أبرصاً ، وأقسمتُ ألا تتزوَّجك حتى تراك كما تراها .
فضحكك التاجرُ حسنُ ، وكشفَ لدليلاً عن ذراعيه وهو يقول :
هاك ذراعىّ فانظريهما .

فضحكتُ دليلاً وقالتُ :

يا بنى ؛ أنا أعرفُ أن جسمك من أصحّ أجسام الشَّباب وأجملها ،
ولكن هى ابنتى التى سمّـَ رأسها الحاسدون ، اخلع فراءك وملا بسك
هذه الكثيرة ، واكشفْ لهما صدرك هذا الجميلَ ، وهات ملا بسكـَ

أحفظها لك بالقاعة الداخلية ، حتى ترى ابنتي وترآك ، وتجلس معها وتجلس معك .

فخلع التاجر حسن فراءه السمور ، وبعضاً من ملابسه الحريرية الثمينة . وبدخلها كيس دنائره وأعطاهما لدليلاً ، وهو يقول لها :
هياً ادعى ابنتك لترانى وأراها .
فخرجت دليلاً تحمل الملابس وتقول :
سأحضرها إليك في الحال .

وذهبت دليلاً فجمعت ملابس الفتاة وحلبها إلى ملابس الفتي ونقوده ، وحزمتها في حزمة حملتها . وغادرت الدار ، وأغلقت الباب من خلفها على الفتاة والفتي .

وسارت دليلاً حتى أتت إلى دكان رجل عطار طيب القلب ، فوضعت حملتها عنده ، وقالت له :
احفظ لى هذه الأمانة عندك حتى أعود لأخذها .
فقال لها الرجل :

ضعيها كما تشاءين . فهي في الحفظ والصون .
وانصرفت دليلاً حتى أتت إلى مصبغة الرجل الصبّاغ الذى سمح لها بالسكنى في داره ، فلما رآها مقبلةً عليه سألها :
لعل الدار تكون قد أعجبتكم .
فأجابت دليلاً :

لَقَدْ أَعْجَبْتَنَا كَثِيرًا جَدًّا ، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ سَتُطِيبُ لَنَا الْإِقَامَةَ فِيهَا ،
وَأَنَا الْآنَ ذَاهِبَةٌ لِأَحْضَرَ الْحَمَّالِينَ لِحَمْلِ حَوَائِجِنَا الَّتِي نَحْتَاجُ إِلَيْهَا مِنْ
دَارِنَا ، أَمَّا وَلَدِي وَابْنَتِي فَهُمَا الْآنَ فِي دَارِكَ الَّتِي تَكْرُمَتَ عَلَيْنَا بِهَا ، وَقَدْ
اشْتَهَيَا أَنْ يَكُونَ طَعَامُهُمَا الْيَوْمَ لَحْمًا مَحْمَرًّا ، وَطَلَبَا مِنِّي أَنْ أُمِرَّ
عَلَيْكَ لِأَدْعُوكَ إِلَى مِشَارَكَتِهِمَا فِيهِ ، لِيَأْتِنَا بِكَ ، وَيَشْكُرَاكَ عَلَى مَا
أَوْلَيْتَنَا مِنْ عَطْفٍ وَمَعْرِوفٍ . فَهَاكَ يَا سَيِّدِي دِينَارًا ، اشْتَرِ بِهِ لَحْمًا
مَحْمَرًّا وَخَبِزًا ، وَادْهَبْ إِلَيْهِمَا لِتَتَغَدَّوْا جَمِيعًا بِهِ ، حَتَّى أَذْهَبَ أَنَا
لِلْإِشْرَافِ عَلَى جَمْعِ مَتَاعِنَا ، وَنَقْلِ حَاجَاتِنَا .

فَقَالَ الصَّبَاغُ :

إِنَّهُ لَيْسَ بِي أَنْ تَكُونَ الدَّارُ قَدْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَيَسْرُنِي كَذَلِكَ أَنْ أَشَارَكَ
وَلَدِيكَ الطَّعَامَ . وَلَكِنْ . . . كَيْفَ أَذْهَبُ وَأَتْرُكُ مُصْبَغَةً بِدُونِ حِرَاسَةٍ
وَمَلَابِسُ النَّاسِ بِهَا .

فَقَالَتْ :

يَحْرُسُهَا صَبِيكَ حَتَّى تَعُودَ ، فَالْلَحْمُ جَاهِزٌ بِالسُّوقِ ، وَالْمَنْزِلُ
قَرِيبٌ .

فَقَالَ الصَّبَاغُ :

كَمَا تَرَيْنَ .

وَأَخَذَ الدِّينَارَ وَمِفْتَاحَ الدَّارِ مِنْ دَلِيلَةٍ ، وَتَوَجَّهَ إِلَى السُّوقِ لِشُرَاةِ
مَا يَلْزَمُ مِنَ اللَّحْمِ وَالْخَبِزِ .

أما دليلةُ فعادتُ إلى العطار حيثُ استردَّتْ منهُ ما أودعته عنده
وعادتُ إلى المصبغة فقالتُ لصبي الصَّبَاغ :
اذهبُ إلى مُعلِّمك لحمل ما يشتري بدلاً عنهُ ، وها أنا ذى جالسةُ
بباب المصبغة حتى تعودا .

فقال الغلام :

أمرُك يا سيدتى .

ثم أسرعَ إلى السوق ليلحقَ بسيده .

ودخلتُ دليلةُ إلى المصبغة ، فجمعتُ ملابس النساء التى بها ،
وخرجتُ . وإذُ بحمار يسيرُ بحماره فنادثه قائلة :
يا حمار ، أتعرفُ ولدى الصَّبَاغ ؟
قال :

نعم يا سيدتى ، أعرفهُ ، فهو رجلٌ معروفٌ بالطيبة ، مشهودٌ
له بالمرُوءة .

قالتُ دليلةُ وهى تتصنَّع الحزنَ والبكاء :

اعلم أن ولدى قد أفلسَ وتراكتُ عليه الديُون ، ونريد أن نُثبِتَ
إعسارَه ، حتى إذا ما أتى عليهِ كشفٌ أو حِجْزٌ من طرف القاضى
ثبِتَ عجزُه وإفلاسُه .

فاعملُ معنَا معروفًا بأن تؤجرَ لى حمارك أحمل عليه ملابس
الناس لأردّها إليهم ، وخذ أنت قضيبيًا من الحديد ، واقلعْ به خزانَات

الماء التى بالمصبغة ، وكسّر به أوانى ألوان الأصباغ ، وهذا دينارٌ أجرةٌ لحمارك الذى سأوزعُ عليه حاجات الناس ، ومتى فرغت من إتلاف كل ما بالمصبغة انتظرنى بها حتى أعودَ إليك بالحمار .
فقالَ لهاَ الحمارُ :

وا أسفاهُ على ما أصاب ابنك ! والله يا سيدتى إني لأخدمه جزاءَ معروفه دونَ أجرٍ أو جزاءٍ !
فقالَتْ دليلاً :

أدامَ اللهُ لنا معروفك ، وقدّرنا على أن نردَّ لك خدمتك لنا فى أحسن الأوقات .

وأسلمَ الحمارُ حمارَه لدليلاً ، فحملَتْ عليه ما أخذتهُ من الملابس التى فى المصبغة ، وما أخذته من ملابس زوجة صاحب الشرطة ، وما أخذته من التاجر حسن ؛ وسحبت الحمارَ وذهبتُ إلى منزلها حيثُ استقبلتها زينبُ بقولها :

ماذا فعلتُ فى يومك يا أمى ؟

قالَتْ دليلاً :

لقد لعبتُ أربعةَ ألأعيبَ على أربعة أشخاص : زوجة أمير ورئيس شرطة ، وابن تاجر ، وصبّاغ ، وحمّار ؛ وجئتُ لك بملابس الزوجة وحليّها ، وملابس ابن التاجر ونقوده ، وملابس النساء التى يصبغها الصبّاغ ، وحملتُ كل هذا على حمّار الحمار .

فَقَالَتْ زَيْنَبُ :

وَاللَّهِ يَا أُمِّي إِنَّكَ لِبَارِعَةٌ مَاهِرَةٌ تَفُوقِينَ فِي حَيْلِكَ وَمَكْرِكَ أَحْمَدَ
الدَّنْفِ وَحَسَنَ شُومَانَ ، وَلَكِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعِي الْخُرُوجَ بَعْدَ ذَلِكَ وَالسَّيْرَ فِي
الطَّرَاقَاتِ ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ النَّاسِ فِي طَلَبِكَ .

٢

أَمَّا الصَّبَّاحُ فَقَدْ اشْتَرَى اللَّحْمَ وَالْخُبْزَ وَحَمَلَهُ عَلَى رَأْسِ صَبِيهِ الَّذِي
لَحِقَ بِهِ : وَرَمَى عَلَى الْمَصْبُغَةِ لِيَتَرَكَ صَبِيَّهُ بِهَا بَدَلًا مِنْ دَلِيلَةٍ ، وَلَكِنْ
مَا كَانَ أَشَدَّ دَهْشَتَهُ وَأَكْبَرَ رَوْعِهِ حِينَ لَمْ يَجِدْ دَلِيلَةَ الْمَصْبُغَةِ ، وَوَجَدَ
بَدَلًا مِنْهَا الْحَمَّارَ ، وَهُوَ جَارٍ فِي تَقْلِيْعِ الْأَحْوَاضِ ، وَتَكْسِيرِ الْأَوَاقِ
وَالدَّنَانِ ؟ فَصَاحَ عَلَيْهِ مُرْتَاعًا :

مَاذَا تَفْعَلُ يَا رَجُلُ ؟

فَالْتَفَتَ الْحَمَّارُ ، فَوَجَدَ صَاحِبَ الْمَصْبُغَةِ أَمَامَهُ يَجُولُ بَعِيْنِيْهِ فِي
أَنْحَاءِ مَصْبُغَتِهِ وَهُوَ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ مَا تَرَى عَيْنَاهُ . فَتَقَدَّمَ مِنْهُ الْحَمَّارُ
وَهُوَ يَقُولُ :

قَلْبِي مَعَكَ يَا مُعَلِّمُ ، مِنْذُ سَمِعْتُ بِخَبْرِ إِفْلَاسِكَ ، وَالرَّغْبَةَ
فِي كِتَابَةِ وَثِيقَةِ إِعْسَارِكَ !

فَصَاحَ الصَّبَّاحُ بِصَوْتٍ مَبْحُوحٍ أَجْشَرُ :

مَا الَّذِي تَقُولُ يَا رَجُلُ ؟ !

قالَ الحمَّارُ :

لقد أخبرتني أملكَ بذلك ، وطلبتُ مني إتلافَ ما في المصْبَغَةِ حتى
يُثبتَ إعساركُ ، وتُعفى من تسديدِ ديونك .

فعادَ الصَّبَّاحُ إلى الصياحِ بصوته الختني :

من هي أمي ؟ ! إنَّ أمي قد ماتتْ منذُ زمنٍ طويلٍ .

فصاحَ الحمَّارُ بدوَّره :

إذن ؛ من هي العجوزُ التي كانتْ هُنا ، وحمَلتْ ملابسَ النَّاسِ
على حمَّاري ، أنا لا أَطْلُبُ حمَّاري إلَّا منك ومن أملك .

فأدركَ الصَّبَّاحُ أنَّ العجوزَ ما هي إلَّا العجوزُ التي أَجَرَتْ منه
الدارَ ، فأقبلَ على الحمَّارِ يَكِيلُ له الضربات واللكمات وهو يصيحُ به :
أ أنتَ الذي أعطيتها حمَّاركَ لتحملَ عليه مآلى ومالَ النَّاسِ ؟ !

قلْ لي : أينَ ذهبتِ العجوزُ بأموالي ؟ !

فصاحَ الحمَّارُ :

قلْ لي أنتَ أينَ ذهبتَ أملكَ بحمَّاري ؟

واجتمعَ النَّاسُ على صياحِ الصَّبَّاحِ ، وصراخِ الحمَّارِ ، واستفسروا
عن سببِ عراكهما ، فقَصَّ كلُّ منهما قصَّته .

فقال رجلٌ من المجتَمعين :

إن الحمَّارَ لا يلزمُ إلَّا من الصَّبَّاحِ .

فقال الصَّبَّاحُ :

وما شأنى أنا فى ذلك ؟ ! أما يكفينى ضياعُ أموالى .
فقال الرجلُ :

لأنَّكَ أنتَ الذى استأمنتَ العجوزَ على مَصْبَغَتِكَ فحسبَها
الحِمَارَ أمَّكَ ، وما سلَّمَ حمارَه إليها إلا على هذا الاعتقاد .
وقال رجلٌ آخرٌ للصَّبَاغِ :

أتُوجِرُ لعجوزَ دارَ ضيافتك ، وتسلم لها مفاتيحها ، دونَ أن
تعرفها ؟

فقال الصَّبَاغُ :

لقد رَدْتُ إلىَّ المفاتيحَ ، وأخبرتني أن ولدها وابنتَها بالدار ،
وكلفتني أن أذهبَ إليهما بطعام الغداء ، فهياً بنا إلى الدار لئرى من
هناك .

وسار الجميعُ يقصدون إلى دار الصَّبَاغِ ليروا ما حلَّ بها .
وفى هذه الفترة كانَ التاجرُ حسنٌ قد اشتدَّ به القلقُ لغيابِ العجوزِ
التي خرَّجَتْ لتأتيهُ بابنتها كى يراها فلم تعد ، وذلك بعد أن أخذتُ
ثيابه معها .

وكانتُ زوجةُ صاحب الشرطة قد أدهشها وأقلقها أيضاً غيابُ
الشيخة التي أتتُ بها لزيارة الشيخ أبي الحملات ، فغادرت العُرْفَةَ التي
كانتُ بها ، وراحتُ تبحثُ عنها هنا وهناك ، وتفتشُ عن المقام الذى
به ضريحُ الشيخ أبي الحملات ، حتى دخلت إلى القاعة التي بها التاجر

حسن ، فلمَّا رآها قال لها :

تعالى وانظريني !

ثم كشفَ لها عن ذراعيه وصدره ، فظنَّتُه الفتاةُ الشابَّ الأباه
الذى حدثتها عنه دليلاً ، فقالت له :

هل أنت ابنُ نقيب الشيخ أبي الحملات ؟

فقال :

أنا التَّاجِرُ حسنُ بنُ التَّاجِرِ محسن ، وقد دعَتني أُمك إلى هُنا
لأراك وأتزوج منك ! !

فظنت الفتاةُ أنها بإزاء شاب مجنون ، ولكنها لم تجدُ بدءاً من أن
تقول :

أنا ما جئتُ إلى هُنا إلاَّ لزيارة الشيخ أبي الحملات ، فدلني
على مكانه حتى آخذ ملابس من الشَّيْخة التي ذهبتَ بها لتضعَها
على مقامه ، وأزورَ وأنصرف .

فقال الشابُّ وقد زادَ به القَلَقُ :

أينَ أُمك التي أخذتَ ملابس مني ؟

قالت :

أنا مَآلى أم . أينَ ملابس مني أنا وحليتي ؟ !

فقال الشابُّ بغَضَبٍ :

أتأتى بي أُمك إلى هُنا ، وتأخذ ملابس مني ونُقُودى ، وتقولين لى :

ليس لك أم ؟ ! أنا لا أطلبُ ملابسِي ونُقُودِي إلاّ منك .

فبكت الفتاةُ وقالت :

لقد أتتُ بي الشبيخةُ لزيارة أبي الحملات ، وأخذتُ ملابسِي وحُلِيِّي لتضعَها على ضريحه ، وما أرى أحداً هُنا غيرك . فأنا لا أطلبُ ملابسِي وحُلِيِّي إلاّ منك .

وبينا الشابُّ والفتاةُ على هذه الحال إذ فتحَ باب المِدار ودخلَ الصباغُ ومن ورائه الحمّار يتبعُهما جمعٌ من الناس .

وما وقعتْ عينا الصبّاغ على الفتى والفتاة حتّى أسرعَ إليهما يسألُهما :

أين أمكما ؟ !

فقالا له :

من تَعَنّى بأُمنّا ؟

قال :

العجوزُ التي أجرتُ منى الدارَ وأتتُ بكُما إلى هُنا !

فقصَّ كل من الفتى والفتاة قصّته مع دليّة ، والجمعُ يسمع قولهما في دهشة وعَجَب ، فلما فرغا من قصّتهما عرفَ الجميعُ أن الفتى والفتاة والصبّاغَ والحمّار كانوا ضحيةً لمُحتالة جريئة ، بلغتْ أقصى درجّات الجرأة والفسادة .

وعادَ الصباغُ يرثى حاله ويضربُ كفّاً بكف وهو يقول :

يا ضَيِّعَةَ مَالِي وَمَالِ النَّاسِ !
 وَأَخَذَ الْحَمَّارُ يُؤَلُّو :
 مِنْ أَيْنَ لِي بِحِمَارٍ ؟ !
 وَالتَّاجِرُ حَسَنٌ يَقُولُ :
 مِلَابَسِي وَأَلْفُ دِينَارٍ !
 وَالْفَتَاةُ تَبْكِي قَائِلَةً :
 يَا حَسْرَتِي عَلَى حُلِيِّي !! يَا لَهْفَتِي عَلَى حُلِّي !!
 وَالنَّاسُ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ :
 عَوِّضْكُمْ عَلَى اللَّهِ .
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ :
 اذْهَبُوا فَابْحَثُوا عَنْهَا وَاسْتَقْصُوا خَبَرَهَا .
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ :
 اذْهَبُوا وَارْفَعُوا شَكْوَاكُمْ إِلَى الْوَالِي .
 فَقَالَ الصَّبَاغُ لِلْحَمَّارِ :
 هَيَّا بِنَا إِلَى الْوَالِي .
 ثُمَّ قَالَ لِلتَّاجِرِ حَسَنَ وَالْفَتَاةِ :
 هَيَّا فَعَادِرَا الدَّارَ ، لِأَنِّي أَوَدُّ أَنْ أَغْلِقَ بَابَهَا قَبْلَ مَسِيرِي .
 فَقَالَ التَّاجِرُ حَسَنٌ :
 وَكَيْفَ نَدْخُلُ إِلَى دَارِكَ مُكْتَسِينَ ، وَنَخْرُجُ عُريَانِينَ ؟ !

وقال الناس للصباغ لا تخين :

كيف تخرج الفتاة من دارك بدون ملابس ودون إزار ؟ !
فلم يسع الصباغ إلا أن يرسل إلى داره من أحضر ملابساً للتاجر . وملابس الفتاة ، فلبسها .
وخرجت الفتاة ومعها من أهل المعروف من أوصلها إلى دارها .
أما التاجر حسن فقد سار مع الصباغ والحمار إلى الوالي حيث
رفعوا إليه أمرهم ، وقصصوا عليه ما جرى لهم من العجوز . فقال لهم
الوالي :

سأكلف رجالى أن يتحرروا عنها ، وأنتم أيضاً اذهبوا فابحثوا من
جهتكم إذ أنكم أدرى من رجالى بها ، وإذا عثرتم عليها فاقبضوا عليها
واثبوني بها .

فذهب التاجر حسن والصباغ والحمار ، يدورون فى الطرقات ،
ويبحثون هنا وهناك يجد وعزم عليهم يعثرون على غريمتهم دليلاً .

٣

أما دليلاً فإنها ظلت معتكفة بمنزلها بعد حادثها مع ابن التاجر
والصباغ والحمار وامرأة رئيس الشرطة بضعة أيام ، ثم قالت لابنتها
زينب :

يا ابنتى ؛ إني أريدُ اليوم أن أخرجَ لأعملَ عملةً أخرى .
 فقالت زينب :
 يا أمى ؛ إني أخافُ عليك بعدَ الذى عملت .
 قالت الأم :

لا تخافى ، ولا تخشىْ علىَّ شيئاً .
 ثم نهضتُ من فورها فتنكرتُ فى زى خادمة من خادِمات الأغنياء ،
 وخرجتُ إلى الطرقات تمشى وتلاحظُ ما يجرى هنا وهناك . وبينما
 هى كذلك مرّت على حارةٍ بصدورها بابٌ لمنزل كبير مفتوح على
 مصراعيه تنبعثُ من داخله نغمات الطُّبُول ، ونغم الدفوف ، وعزف
 الموسيقى ، وقد فرشتُ أمامه الأبسطةُ وعُلقتُ بجانيه الأقمشة ،
 وزُينتُ واجهته بالزينات والأعلام ؛ فعرفتُ فيه دليلاً منزلاً شاه بندير
 التجار ببغداد . وأمام المنزل تقفُ خادمةٌ تحملُ على كتفها طفلاً
 صغيراً تلاعبه وتلاطفه وتُناغيه ، وقد ارتدى الطفلُ ملابسَ من الحرير
 والقטיפَةِ المطرزة بخيوط القصب ، ومن حول رقبتِه قلادةٌ "مرصعة"
 بالماس وفصوص اللؤلؤ .

وما رأتُ دليلاً هذا الطفلَ وما عليه من الملابس والجواهر حتى
 صحَّ عزمها على أن يكون هو صيدها الجديد !
 فسارت حتى اقتربتُ من الخادمة وسألتها وهى تتصنّع الدهشة :
 ماذا عندَ سيدتك اليوم وأنا لا أدرى ؟ !

فقالَتُ الخادِمةُ :

عندِها اليَومَ عَقْدُ قرانِ ابْنَتِها .

فقالَتُ :

وما لكِ تَقفِينَ بالِطفَلِ ها هُنَا ، ولا تَفَرِّجِينَه على ما عندَكُمُ من

طَبَلٍ وزَمَرٍ وغَناءٍ ؟ !

قالَتُ الخادِمةُ :

إنِ الطِفَلَ لا يَكُفُّ عَنِ التَّشَبُّثِ بِسَيِّدَتِي أَيُّما تَروُحُ وَأَيُّما تَعدُو ،

ويَعوقُها عَنِ أَداءِ واجِباتِ الضيَّافَةِ مَعَ مَنْ عَندَها مِنَ السَّيِّداتِ .

فأُخْرِجَتُ دَليلاً قِطْعَةً مَعَدْنِيَّةً مِنْ جِيبِها تُشَبِّهُ الدِّينارَ الذَّهَبِيَّ ،

وأَعطَتُها للخادِمةِ وقالَتُ لها :

اصعَدي إلى سَيِّدَتِكَ ، وأَعطِها هَذا الدِّينارَ نَقوْطاً للمَغَنياتِ وقوْلي

لِها : أُمُّ الحَيرِ فَرَحَتُ كَثيراً لِعَقْدِ قرانِ ابْنَتِكَ ، وإِنْ شاءَ اللهُ يَومَ

الزَّفافِ تَأْتِي هِيَ وَبَناتُها لِنَقوْطِ المَواشِطِ .

ثم قالَتُ للخادِمةُ :

وأَعطِني الطِفَلَ أَحْمَلُهُ عَنكَ إلى أَنْ تَعوُدي حَتَّى لا يَتَشَبَّثَ بِأَمِّه

إِذا صَعَدَتِ إِلَيها بِهِ .

فأَخَذَتِ الخادِمةُ القِطْعَةَ المَعَدْنِيَّةَ الصَفراءَ وَهي تَظُنُّها دِيناراً ،

وصَعَدَتِ إلى سَيِّدَتِها .

أَما دَليلاً فَقَدِ أَخَذَتِ الطِفَلَ وَسارَتْ ، حَتَّى إِذا ما كانَتْ بِطَريقِ

خَالَ من المارّة نزعَتْ ما عليه من حُلّى وملابسٍ خارجيّة ثمينّة ، ثم سارت بالطفل حتّى بلغتْ به سُوقَ الجواهر ، وأتَتْ إلى دكان جوهريّ يهوديّ اسمه عُذْرَة ، فتقدّمتْ منه وقالتْ لصاحبه :

ألسْتَ أَنْتَ المعلمُ عذْرَة ؟

قال الجوهريّ :

نعم أنا هو ، ماذا تَبْغين ؟

قالتْ :

أُعرفُ هذا الطفلَ ؟

فتفرّسَ الرجلُ في وَجْه الطفل وقال :

نعم فهو ابنُ شاه بندر التجار ، فكثيراً ما جاء به أبوه إلى السوق وكانَ محلّاً إعجابنا .

قالتْ :

اعلمْ أن اليومَ هو يومُ عَقْدِ قرانِ أخته بنت شاه بندر التجار .

فأمّن الرجلُ على كلامها قائلاً :

نعم ، فإنّ التجارَ على علمٍ بذلك .

قالتْ :

لذلكَ أرسلتني سيدتي إليك لأن ابنتها في حاجة اليوم إلى بعض الجواهر ، فأعطني أفضلَ ما عندك من الأساور والقلائد والحلي والخواتم ، حتّى تنتقيَ من بيّنها ما تريده ، وأردُّ لك الباقي ، وأحضِرُ لك -

الْثَمَنَ . وسأدعُ يا سيدى هذا الصغيرَ عندك رهينةً حتى أعود .

فقال اليهودى :

إِنَّ لَنَا عَظِيمَ الشَّرَفِ فِي أَنْ يَتَقَعَ اخْتِيَارُ سَيِّدَتِكَ عَلَى مَحَلِّنا لِأَخْذِ
مَا تُرِيدُ لَابْنَتِهَا الْعَرُوسَ ، خَذِي كُلَّ مَا تَشَائِينَ واعرضيه عَلَيْهَا
لَسَتُنْقِي مِنْهُ مَا تُرِيدُ .

وأخرجَ اليهودى من عُلْبِهِ وأدراجِهِ الْكَثِيرَ من الجواهرِ الْمُخْتَلِفَةِ
الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ ، وَدَفَعَهَا إِلَى دَلِيلَةٍ فَأَخَذَتْهَا وَانصَرَفَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا
بَعْدَ أَنْ تَرَكَتْ لِلْجَوْهَرِ الْطِفْلَ رَهِينَةً .

أَمَّا جَارِيَةُ شَاهِ بَنْدَرِ التِّجَارِ فَقَدْ صَعِدَتْ إِلَى سَيِّدَتِهَا وَأَعْطَتْهَا
قِطْعَةً مِنَ الْمَعْدَنِ الصَّفْرَاءِ الَّتِي أَعْطَتْهَا لَهَا دَلِيلَةٌ ، وَقَالَتْ لِسَيِّدَتِهَا مَا قَالَتْهُ
دَلِيلَةٌ لَهَا ، فَسَأَلَتْهَا سَيِّدَتِهَا :

وَأَيْنَ سَيِّدِكَ الصَّغِيرُ ؟

أَجَابَتْ الْجَارِيَةُ :

هُوَ مَعَ أُمِّ الْخَيْرِ حَمَلَتْهُ عَنِّي كَيْلَا يَتَشَبَّثَ بِكَ حَتَّى أَعُودَ .
وَهَمَّتْ زَوْجَةُ شَاهِ بَنْدَرِ التِّجَارِ بِإِعْطَاءِ الْقِطْعَةِ لِلْمَغْنِيَةِ ، وَلَكِنَّهَا
لَا حَظَّ أَنْهَا لَيْسَتْ بِدِينَارٍ ، فَاسْتَعْرَبَتْ الْأَمْرَ وَقَالَتْ لِلْجَارِيَةِ بِحَدِّ :
مَنْ هِيَ أُمُّ الْخَيْرِ هَذِهِ ؟ ! انْزِلِي سَرِيعًا وَائْتِيْنِي بِالْطِفْلِ .

فَنَزَلَتْ الْجَارِيَةُ إِلَى حَيْثُ تَرَكَتْ دَلِيلَةً وَهِيَ تَحْمِلُ الطِفْلَ فَلَمْ
تَجِدْهُمَا ، فَبَحِثَتْ هُنَا وَهُنَاكَ بِلَهْفَةٍ فَلَمْ تَعُثِرْ لَهُمَا عَلَى أَثَرٍ ، فَصَرَخَتْ

وَوَلَوْتُ وَبَكْتُ ، فَتَزَلَّ عَلَى صَرَاحِهَا وَوَأَوَّلَتْهَا وَبَكَأُهَا أَهْلُ الدَّارِ ،
 وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ نَفَرٌ مِنْ عَابِرِي الطَّرِيقِ ، فَسَأَلُوا الْجَارِيَةَ عَنْ أَمْرِهَا ،
 وَاسْتَفْسَرُوهَا جَلِيَّةَ الْخَبَرِ ، فَقَصَّصَتْ لَهُمْ مَا كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ دَلِيلَةٍ .
 فَانْقَلَبَ فَرَحُ أَهْلِ الدَّارِ وَسُرُورُهُمْ حُزْنًا وَغَمًّا ، وَتَبَدَّلَ غَنَاؤُهُمْ
 وَضَحْكُهُمْ بَكَاءً وَنَحِيًّا .

وَأَسْرَعَ نَفَرٌ مِنْهُمْ وَعَلَى رَأْسِهِمْ شَاهُ بَنْدَرِ التَّجَارِ يَبْحَثُونَ عَنْ
 الْطِفْلِ وَخَاطِفَةِ الطِّفْلِ .

وَسَارُوا هُنَا وَهُنَاكَ يَسْأَلُونَ وَيَسْتَفْصِلُونَ ، حَتَّى سَاقَتْهُمْ أَقْدَامُهُمْ
 إِلَى سَوَاقِ الْجَوَاهِرِ ، وَهُنَاكَ شَاهِدُ شَاهِ بَنْدَرِ التَّجَارِ وَلَدُهُ جَالِسًا عَلَى
 مَنْصَبَةٍ بَدَكَانِ الْيَهُودِيِّ وَهُوَ يَلَاعِبُهُ وَيُلَاطِفُهُ خَوْفًا مِنْ بَكَائِهِ فَأَسْرَعَ
 الشَّاهُ بَنْدَرُ إِلَى طِفْلِهِ يَحْتَضِنُهُ بِشَوْقٍ ، وَيُقَبِّلُهُ بِلَهْفَةٍ ، وَهُوَ يَسْأَلُ
 الْيَهُودِي :

كَيْفَ عَثَرْتَ عَلَى وَلَدِي يَا مُعَلِّمَ عُذْرَةٍ ؟ !

فَأَجَابَهُ الْيَهُودِي :

إِنَّ جَارِيَتَكَ هِيَ الَّتِي أَتَتْ بِهِ إِلَى هُنَا ، وَأَخَذْتُ جَوَاهِرَ لَأَجَلَ
 ابْنَتِكَ كَيْ تَعْرِضَهَا عَلَى زَوْجَتِكَ وَتَرْكَتِ الطِّفْلَ رَهِينَةً عِنْدِي .

فَقَالَ الشَّاهُ بَنْدَرُ مُسْتَكْرَأً قَوْلَ الْيَهُودِيِّ :

أَيُّ جَارِيَةٍ ؟ ! وَأَيُّ جَوَاهِرٍ ؟ !

إِنَّ ابْنَتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى جَوَاهِرٍ ، وَمَا كَانَتْ أَلِيَّ تَحْمِيلِ الطِّفْلِ

بجَارِيتي ؛ بلْ هِيَ امْرَأَةٌ اخْتَطَفْتُ الطِّفْلَ مِنْهَا ، وَكُنَّا بِسَبِيلِ
الْبَحْثِ عَنْهَا .

فَجَزَعَ الْيَهُودِيُّ وَكَادَ يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ هَوْلِ الصَّدْمَةِ ، وَأَدْرَكَ
أَنَّهُ كَانَ ضَحِيَّةً لِمُحْتَالَةٍ جَرِيئةٍ أَخَذَتْ جَوَاهِرَهُ بِحِيلَةٍ مَاهِرَةٍ بَارِعَةٍ .
وَلَكِنَّهُ عَادَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَانْتَبَهَ إِلَى أَمْرِهِ ، فَصَاحَ عَلَى شَاهِ بَنْدَرِ التِّجَارِ
قَائِلًا :

إِنِّي لَا أَطْلُبُ جَوَاهِرِي وَمَالِي إِلَّا مِنْكَ ، فَأَنَا مَا ائْتَمْتُ الْمَرْأَةَ
الَّتِي أُعْطِيتُهَا الْجَوَاهِرَ إِلَّا عَلَى ظَنِّ أَنَّهُ جَارِيَتُكَ حَيْثُ قَدْ جَاءَتْنِي بِوَلَدِكَ .
فَاحْتَدَّ شَاهُ بَنْدَرِ التِّجَارِ عَلَى الْيَهُودِيِّ قَائِلًا لَهُ :
قُلْتُ لَكَ إِنِّي لَا أَعْرِفُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا مُحْتَالَةٌ اخْتَطَفَتْ
وَلَدِي ثُمَّ جَاءَتْ بِهِ إِلَيْكَ .

وَهُمَّ الشَّاهُ بَنْدَرُ بِأَخْذِ وَلَدِهِ وَالْانْصِرَافِ بِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَاحِظٌ أَنَّهُ عَارٍ
مِنْ مَلَابِسِهِ الثَّمِينَةِ الَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا ، وَمِنْ حُلِيِّهِ النَّفِيسَةِ الَّتِي كَانَ
يَتَحَلَّى بِهَا ؛ فَصَرَخَ عَلَى الْيَهُودِيِّ قَائِلًا :
أَيْنَ مَلَابِسُ وَلَدِي وَحُلِيِّهِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِ ؟ !
فَرَدَّ الْيَهُودِيُّ سَاخِطًا حَائِقًا :

لَمْ تَأْتِنِي بِهِ الْمَرْأَةُ إِلَّا هَكَذَا ، أَسْأَلُ عَنْ رِداءِ ابْنِكَ وَحُلِيِّهِ
وَلَا تَهْتَمُّ لِمَا أَصَابَنِي ؟ ائْتِنِي أَنْتَ بِجَوَاهِرِي وَمَالِي ، فَإِنَّهُ لَا يُطَالَبُ بِهَا
أَحَدٌ إِلَّا أَنْتَ .

واشتد النزاعُ بينَ اليهوديِّ ووالدِ الطفلِ ، وعلا الصياحُ ، وكثر الصراخُ . واجتمعَ النَّاسُ من هُنا ومن هُنَاكَ يستجلونَ الأمرَ ، ويستطلعونَ الخبرَ . فلما عرَفُوا ما كانَ انقسموا إلى فريقين يؤيد أحدهما الشاه بندر ، ويؤيد الآخرُ اليهوديَّ .

هذا يرى أنَّ اليهوديَّ ليسَ لهُ على الشَّاه بندر حقٌ ، فإِذَا كَانَ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ المرأةَ المحتالةَ على جواهره لمجرد أنها تحملُ الطفلَ ابنَ الشاه بندر .

وفريقٌ يرى أنَّ الشاه بندر ملزمٌ بمشاركة اليهوديِّ في خسارته ، لأنَّهُ بإهمال عائلته وسوء تصرف جاريته تمكَّنتِ المحتالةُ من اختطاف الطفل لتتخذهُ وسيلةً لتنفيذ حيلتها .

وبينما الجمعُ في مُشاحنةٍ وجدالٍ ، وأخذ وردٌ ، وشد وجذبٌ ، اقتربَ منْ هذا الجمعِ ثلاثةُ رجالٍ يتعرَّفونَ الخبرَ ؛ وما إنْ عرَفُوهُ حتَّى تقدمُوا من المتشاحنين يقولون :

لقد كُنَّا ضحيةً لهذه المرأة المحتالة من قبلكما ، ونحن الآن نطُوفُ الطرقات في سبيل البحث عنها .

فلما استفسرهُمُ الجمعُ عنْ أمرهم قصَّوا عليهم قصَّتَهُمْ . فعرفوا أنَّ هُنَاكَ تاجراً وصَبَّأغاً وحمَّاراً قد احتالتْ عَلَيَّهِمْ هذه العجوزُ المحتالةُ بما هوَ أفضعُ وأشنعُ من حيلتها على ابنِ الشاه بندر واليهوديِّ .

وقالَ اليهوديُّ للتَّاجرِ والصَّبَّأغِ والحمَّارِ :

بما أنكم تبحثون عنها فخذوني أبحثُ عنها لأستخلصَ منها
جواهرى وأنتم منها لنفسى .

وقال الشاه بندر :

أما أنا فإني أحمدُ الله على سلامة ولدى ، وسأعودُ به الآن إلى
دارى ، وعند ما تجدون العجوزَ أطلبها بحقى .

وعاد الشاه بندر بولده إلى داره . أما اليهودى فإنه أغلق دكانه ،
وأشارَ على الصَّبَّاح والحمَّار والتاجر أن يتفرَّقوا في أنحاء المدينة لِيبحثَ
كلُّ منهم في جهةٍ منها ، ويكونُ اجتماعهم في آخر النهار في مكان
تعارفوا عليه ، وعيَّنوه لأنفسهم ، بالقربُ من دكان رجل حلاق
مَغْرِبِي .

وهكذا تفرَّقوا في أنحاء المدينة كي يسهلَ عليهم البحثُ عن
العجوز التي احتالتُ عليهم ، وغرَّتْ بهم ، وسلبتُ منهم ما سلبتُ .

٤

أما دليلاً فقد أسكرها النصرُ ، وأطربها الفوزُ ، وباتت لا تحسبُ
حساباً ، ولا تخشى خشيةً ، فخرجتْ تَطُوفُ بالمدينة ، وتدور
بأرجائها تتحَيَّنُ الفرص لصيد جديد .
وبينا هي تسيرُ وعيناها تدوران بينَ القريب والبعيد ، إذ بها

وجهًا لوجهه أمام غريمها الحمّار الذى كان فى طريقه إلى المكان الذى اتفق مع رفاقه على الاجتماع فيه .
وما إن وقعت عينها الحمّار عليها حتى عرفها ، فأمسك بتلابيبها صائحًا عليها :

أين حمّارى ؟ . . . أين حمّارى ؟ . . .
وأدركت دليلاً أنها قد وقعت ، ولن ينقذها من الحمّار إلا الرفق والحيلة ؛ فتوسلت إليه بصوت خافت قائلة :
يا حمّار ؛ إن حمارك فى الحفظ والصون ، وقد كنت بسبيل رده إليك لأنك رجل فقير مسكين ، وأنا أحفظه لك عند الرجل الطيب الخلاق المغربى ؛ فتعال معي ليُعطيه لك ، ولكن لا تظهر أمامه ، ولا أمام الناس شيئاً ، واستر على يستر الله عليك .
وسارت دليلاً ومعها الحمّار ؛ حتى إذا ما اقتربا من دكان الخلاق المغربى قالت له :

قف أنت هُنا بجوار الدكان حتى أكلم الخلاق فى شأن الحمّار .
فوقف الحمّار بالقرب من دكان الخلاق ، وعينه على بابه يراقبه حتى لا تُفقد دليلاً منه . أما دليلاً فقد دخلت إلى الدكان وحيّت صاحبه وعيناها تقطران بالدموع ؛ وردّ الخلاق تحيتها وسألها :
ما بالك يا سيدتى تبكين ؟
قالت :

لأنّ ولدى هذا الواقف بالقرب من الدكان كان حمّاراً ، ثم أصيبَ بلوثة في عقله فهو لا يكف عن قوله : حمّارى ! حمّارى ! حتّى صار لا يهنا لنا بسببه عيشٌ ، ولا يرتاح لنا بالٌ . وقد عرضتُ أمره على أحد الحكماء فقال : إن اللوثة التى أصيبَ بها لا يشفيها إلّا أنْ يخلع له ضرسان من أضراسه ويكوى مرتين على أضداغه . وقد جئتُك به فاعمل معي معروفًا وائته بالحيلة ، وقل له : إن حمّاره عندك ، حتّى يطمننّ إليك ، وتستطيع إدخاله إلى دكانك للخلع ضرسيّه ، وكىّ صدغيّه .

ثم أخرجتُ دليلاً ذيناراً وأعطتُ الحلاق إياه وهى تقول : اصنع معي معروفًا يا سيدى ، وساعدنى على شفاء ولدى . فقالَ لها الحلاقُ :

لا تحملى همًّا يا سيدتى ، وفوضى أمرك إلى الله ثم إلىّ . ونادى الحلاقُ غلامين عنده وقال لهما :

حمّيا إلى المسّمارين الكبيرين ، وأحضرا حبلاً متيناً .

ثم خرجَ إلى باب الدكان ونادى الحمّار وقالَ له :

تعال يا ولدى ، إن حمّارك عندى ، ولن أسلمه لأحد إلّا لك ، ولن تمسك بلحامه يد غير يدك .

فأقبلَ الحمّارُ على الحلاق فرحاً وهو يقول :

أين حمّارى ؟ !

فأخذه الخلاقُ من يده ، وأدخله إلى الدكان ، وهو يقول :
 إنَّ حمارك هُنا ، أربطه بداخل الدكان .
 ثم قاده إلى خلوة في داخل الدكان ، ولكمه في فكه لكمة قوية
 جعلته يترنحُ ثم يسقطُ على الأرض ، وأسرع الخلاقُ بمعاونة غلاميه ،
 فشدوا وثاق الحمار بالجل ، وكتفوا يديه وقدميه ؛ ثم فتحوا فمه
 وخلع له الخلاقُ ضرسين ، وكواه بالمسمارين الحميين على صدغيه
 كيَّين ، والحمار يجأرُ ويصرخُ ويصيحُ حتَّى أغمى عليه .
 والناسُ السَّائرونَ بالطريق لا يلفتُ نظرهم الصراخُ ، ولا يستعير
 التفاتهم الصياحُ ؛ فهم يعرفون أنَّ هذا الدكان دكانُ حلاق ،
 وكثيراً ما يخلع الأضراس ، وكثيراً ما ينبعثُ من جوفه الصياحُ والصراخُ .
 وانتهزت دليلاً فرصة انشغال الخلاق وصييه مع الحمار في داخل
 الدكان ، فحملتُ من حاجيات الخلاق ما خفتُ حملهُ ، وغلا ثمنهُ ،
 ثم تسللتُ إلى الخارج .

ولمَّا أفاقَ الحمارُ ممَّا ألمَّ به قالَ للحلاق وهو يئنُّ ويبيكي :
 لمَ فعلتَ هذا بي يا مغربي ؟ !
 فأجابه الخلاق :

من أجل شفائك ، كما طلبتُ أملك .

فقال الحمارُ متعجباً :

أهى المرأةُ التى قالتُ لكَ إنها أُمى ، وطلبتُ منك أن تفعلَ بي

ذلك ؟ ! ألم تقل لك على حمارى ؟

فقال الخلاق :

أعدنا إلى سيرة الحمّار ؟

فقال الحمّار :

أنا لا أبرحُ هذا المكانَ حتى آخذَ حمارى . ماذا قالتُ لكَ

العجوز بشأن الحمّار ؟

فقال الخلاق :

أخبرتني أنك مريضٌ ، وأنت لا تكفُ عن قولك : حمارى !
حمارى ! فى قيامك وقعودك وغدوك ورواحك ؛ ولذلك أشار عليها
أحدُ الحكماء بكبك فى صدغيك ، وبتخليع ضرسين من أضراسك ،
حتى تبرأ مما أنت فيه .

فلم يبال الحمّارُ أن صرخ على الخلاق بقدر ما استطاع أن
ينصرخ من فمه الجريح يقول :

إنّها امرأةٌ نصّابةٌ ، وليست بأبى ، نصّبت علىّ وأخذتُ حمارى ،

أين هى ؟ ! اثنى بها .

وخرج الخلاق والحمّارُ يبحثان عن دليّة ، فلم يجدا لها أثرًا ،
ولمّا رأى الخلاقُ ما حلَّ بدكّانه من نهْب أدواته وسرقة حاجّاته ،
فأمسك بتلابيب الحمّار وهو يقول له :

إنّها حليلةٌ عملتُماها علىّ أنت وأملك لتسلبا مالى ، وتنهب دكاني

أينَ أملك ؟ اثنىَ بها ، فما أطلبُ حاجَتى وأدواتى إلا منك !
فقالَ الحمَّارُ :

قلتُ لكَ إنها نصَّابة نصبتُ علىَّ وعلىَ ناسٍ كثيرينَ غيرى .
ولكنَّ الخلاقَ لم يقتنع بكلام الحمَّار ، ولم يُصدقُ حجَّتَهُ
بل ظلَّ متشبِّهاً به متعلِّقاً بتلابيبه وهو يقولُ له :
ما أطلبُ حاجَتى إلاَّ منك !

واجتمعَ الناسُ على صَوْتِ المشاحنة والعراك ، وأتىَ فيمَن أتى
التَّاجرُ حسنَ الصَّبَّاعُ واليهودى ، وكانوا قد جَاءوا إلى هذا المكان
لاجتماع بعضهم ببعض ، وعلى حسب اتفاقهم ، ليرَوْا مَن منهم
استطاعَ أن يعثرَ على أثرٍ للمُحتالة التى احتالتَ عليهم ، ومَن منهم
تيسرَ له الاهتداءُ إليها . فوجدوا الحمَّار يتشاحن مع الخلاق المغربى
وهو مكوى الصُّدغين ، والدمُ يسيلُ مَن فيه . فسألوه عَمَّا به ، فحكى
لهم ما جرى ، فقصَّ كلُّ منهمُ على الخلاق قصَّتَهُ ، وأفهموه
أنهم جميعاً كانوا ضحيةً لهذه المرأة المحتالة .
فقالَ الخلاق :

وما يُفْعِدكم عن مُطالبة الوالى بما لكم ، هيَّا بنا إليه فما نطلبُ
حاجاتنا إلاَّ منه .

وأغلقَ الخلاقُ دكانه ، ثم ساروا جميعاً يقصدون الوالى .
وقالَ لهم الوالى عند ما ذهبوا إليه :

إنَّ رجالاً يَبْحَثُونَ عَنْ هَذِهِ الْعُجُوزِ الَّتِي تَصْنَعُونَ ، وَلَكِنَّ الْعَجَائِزَ كَثِيرَاتٌ وَمَتَشَابِهَاتٌ .

فَقَالُوا لَهُ :

نَحْنُ نَعْرِفُهَا ، أَعْطِنَا نَفَرًا مِنْ رَجَالِكَ لِيُسَهِّلُوا عَلَيْنَا الْبَحْثَ ، وَمَتَى وَجَدْنَاهَا تَعْرِفْنَا عَلَيْهَا .

فَأَمَرَ الْوَالِي عَشْرَةَ مِنْ رَجَالِهِ بِمَصَاحِبَةِ هَؤُلَاءِ الشَّاكِينَ وَمُعَاوَنَتِهِمْ فِي الْبَحْثِ عَنْ غَرِيمَتِهِمُ الْعُجُوزِ .

وَطَالَ الْبَحْثُ بِالْبَاحِثِينَ وَهُمْ يَجُوبُونَ الطَّرِيقَاتِ ، حَتَّى التَّقُوا بِدَلِيلَةٍ ، وَتَعَرَّفُوا عَلَيْهَا وَأَمْسَكُوا بِهَا ، وَسَاقَوْهَا إِلَى بَيْتِ الْوَالِي .

وَفِي بَيْتِ الْوَالِي أَخْبَرَهُمُ الْحُرَّاسُ أَنَّ هَذَا الْوَقْتَ الَّذِي جَاءُوا فِيهِ هُوَ مِيعَادُ نَوْمِ الْوَالِي ، وَدَعَوْهُمْ إِلَى الْإِنْتِظَارِ بِفَنَاءِ الدَّارِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ الْوَالِي مِنْ نَوْمِهِ فَيَعْرِضُوا عَلَيْهِ أَمْرَهُمْ .

فَدَخَلَ التَّاجِرُ حَسَنٌ وَصَحْبُهُ الْأَرْبَعَةُ : الصَّبَّاحُ وَالْحَمَّارُ وَالْخَلَّاقُ وَالْيَهُودِيُّ ، وَمَعَهُمْ دَلِيلَةٌ وَالشَّرْطَةُ أَتْبَاعُ الْوَالِي إِلَى فَنَاءِ الدَّارِ لِلْإِنْتِظَارِ فِيهِ حَتَّى يَصْحُوَ الْوَالِي مِنْ نَوْمِهِ ، وَيَسْتَدْعِيَهُمْ إِلَيْهِ .

وَجَلَسَتْ دَلِيلَةٌ وَأَسْنَدَتْ رَأْسَهَا إِلَى الْحَائِطِ وَتَظَاهَرَتْ بِالنَّوْمِ ، وَكَانَ الرِّفَاقُ الْخَمْسَةُ وَمِنْ مَعَهُمْ مَنْ أَتْبَاعَ قَدْ بَرَّحَ بِهِمُ التَّعَبُ ، وَبَلَغَ بِهِمُ الْإِعْيَاءُ مَبْلَغًا عَظِيمًا ، مِنْ كَثْرَةِ طَوَافِهِمْ فِي الطَّرِيقَاتِ ، وَتَجَوَّاهُمُ هُنَا وَهُنَاكَ لِلْبَحْثِ عَنْ دَلِيلَةٍ ، فَمَا كَادُوا يَجْلِسُونَ هُمْ الْآخَرُونَ حَتَّى

شعروا بارتخاء أجسامهم ، وثقل رؤوسهم ، ثم لم يلبثوا أن استغرقوا في نوم عميق .

ورأت دليلاً ما حل بهم ، فنهضت قائمة تلتمس لها طريقاً للفرار ، ولكن باب الدار كان يقف عليه الحراس الذين يلمون بتقصتها ، ويعرفون أنها متهمه جىء بها للمحاكمة لدى الوالى ، فمن أين المفر ؟ ووقفت دليلاً تفكر فيما يجب أن تتخذ من تدبير ، وتستنبط من حيل ، ومن ثمة لم تجد أمامها إلا أن تتجه إلى داخل دار الوالى لعلها تعثر هناك على مخرج لها .

واتخذت دليلاً طريقها إلى داخل دار الوالى ، وهنالك قابلتها جارية استفهمتها عن أمرها ، فقالت دليلاً :
إني أبغى مقابلة زوجة الوالى لأمر هام .

فقادت الجارية إلى مجلس سيدتها زوجة الوالى ، واستأذنتها في دخول دليلاً إليها ، فأذنت لها ، فدخلت دليلاً . وبعد أن حثت دعيتها زوجة الوالى إلى الجلوس ، واستفسرتها عن أمرها ، فقالت لها دليلاً :

يا سيدتى ؛ أنا وابنى تجار رقيق ، نستجلب ونبيع الممالك ، وقد أوصانى سيدى الوالى منذ بضعة أيام أن أجلب له خمسة ممالك بمبلغ ألف دينار غير عمولى . وقد وقع فى يدى خمسة ممالك ، يساوى الواحد منهم ألف دينار ، وتقدم إلينا من يريد شراءهم ،

ولكنى رفضتُ أنْ أبيعهم إلاَّ للوالى إكراماً لهُ . أما ولدى فقد أغراه ما عَرَضَ الرَّأغبُونَ فى الشراء من ثمن غال ، وأراد أن يبيعَ لهم الممالك ، ولكنى استطعتُ أن أصحبَ الممالك ، وأنْ أجىءَ بهم إلى هنا ، فتبعنى ولدى ليستخلصهم من يدي ، ولكنى دخلتُ بهم إلى داركم قبلَ أن يلحقَ بى ويعُوقنى .

وكانَ من حسن حظ دليلة ومن مُساعدة الظروف لها أنْ الوالى كانَ قدْ أودَعَ لدى زَوْجته ألفَ دينار على ذمة شراء ممالك بها ، فقالتْ زَوْجةُ الوالى لها :

حقاً ؛ إننا نريدُ شراءَ ممالك ، ولكن الوالى نائمٌ الآن ، فانتظرى حتّى يصحو من نومهِ ويُعاينَ الممالكَ ويُعطيكِ الثمن .
فقالَتْ دليلة :

إننى الآن فى عَجَلَةٍ من أمرى ، والدار أمان يا سيدتى ، فاسمحي لى أنْ أنصرفَ ، وأتركَ الممالكَ هنا حتّى يعاينهم الوالى ، ثم أمرَ عليكم لأقبضَ ثمنهم فى فرصة أخرى .

فقالَتْ زوجةُ الوالى :

وأينَ هم الممالك ؟

فقالَتْ دليلةُ :

همُ يا سيدتى بفناء المنزل تحت نوافذ دارك ، فأطلتى عليهم من نافذتك ، وشاهدتهم وعابنى وجأهتهم .

فأطلَّتْ زوجةُ الوالى من النافذة ، فوجدتُ التَّاجِرَ حَسَنًا بِجَمالِهِ
 وَأَبْهَتَهُ ، وَجَاهَهُ مَلابِسُهُ يَجْلِسُ تحتَ النَّافِذَةِ مَسْنَدًا رَأْسَهُ إِلَى ذِرَاعِهِ ،
 وَبِجَانِبِهِ يَجْلِسُ بَقِيَّةُ رِفاقِهِ : اليَهُودى والصَّبَاغُ والحِلاقُ والحَمَّارُ ،
 وَجُلُهم يَرْتَدى مَلابِسَ نَفِيسَةٍ ثَمِينَةٍ ، فَأَعْجَبَتْ زوجةُ الوالى بِهِمْ ،
 وَقَدَرَتْ أَنَّ ثَمَنَهُمْ يَزِيدُ عَنْ أَلْفِ دِينَارٍ ، فَقَالَتْ لِدَلِيلَةٍ :
 مَا عَلَيْكَ مِنْ بَأْسٍ أَنْ تَبِيعَهُمُ الْآنَ وَأُخَذِى ثَمَنَهُمْ ، وَتَبْقَى عُمُولُكَ
 لِتَأْخُذِهَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوَالِى .

فَقَالَتْ دَلِيلَةُ :

هَذَا رَأْيُ حَسَنٍ " يَا سَيِّدَتِى ، انْقَدِى مَا تَشَاقِينَ مِنَ الثَّمَنِ ،
 وَالْبَاقِ أَحْضَرِ لِأُخْذِهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوَالِى ، وَلَكِنَّ لِي عِنْدَكَ رَجَاءً أَرْجُو
 أَنْ تَحْقِيقَهُ لِي ، وَهُوَ أَنَّ تَسْمَحِى بِانْصِرَافِى مِنْ بَابِ السَّرِّ حَتَّى لَا أَلْتَقِ
 بِوَلَدِى الَّذِى يَنْتَظِرُنِى بِالْبَابِ .

فَقَالَتْ زَوْجَةُ الْوَالِى :

لَكَ ذَلِكَ .

ثُمَّ نَهَضَتْ ، فَأَحْضَرَتْ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَأَعْطَتْ دَلِيلَةَ إِيَّاهَا ، وَاسْتَدْعَتْ
 جَارِيَتَهَا وَأَمَرَتْهَا أَنْ تَصْطَلِحَ دَلِيلَةَ حَتَّى تَخْرِجَهَا مِنْ بَابِ السَّرِّ .
 فَصَحَبَتْ الْجَارِيَةُ دَلِيلَةَ ، وَسَارَتْ وَإِيَّاهَا حَتَّى أَخْرَجَتْهَا مِنَ
 الدَّارِ بِسَلَامٍ .

وَلَمَّا اسْتَيْقَظَ الْوَالِى مِنْ نَوْمِهِ أَتَتْهُ زَوْجَتُهُ قَائِلَةً :

تمننى لك بالممالك الخمسة الذين اشتريتهم .

قال :

أى ممالك ؟

قالت :

الذين أوصيت عليهم التجارة العجوز ، فقد أحضرتهم أثناء نومك فعابنتهم أنا من النافذة وأعطيتها الألف دينار التى كنت تحفظها عندى بنية شراء ممالك ، وعمولتها أجلتها حتى تصحو فتأمر لها بها .

فقال الوالى بعجب :

إننى لم أوص أية امرأة أو تاجرة بشراء ممالك . . . أين هؤلاء

الممالك ؟ !

قالت :

ها هم أولاء يجلسون بفناء الدار تحت النافذة ، وقد أرسلت الجارية إلى رئيس المقدمين أوصيه بهم خيراً .

فقال الوالى :

لا بد من أن أنزل إليهم لأراهم .

ونزل الوالى إلى فناء داره ، فقابله رئيس المقدمين الذين قبضوا

على دليلة مع التاجر حسن وإخوانه ، فقال له الوالى :

أين الممالك الخمسة الذين اشتريناهم ؟

فقال الرجل :

لا علم لي بالممالك يا سيدى ؟ !

فقال الوالى :

أليسوا هنا يجلسون بفناء الدار ؟

قال الرجل :

لا أحد هنا يا سيدى غير الخمسة الرجال الذين كُنَّا نُصَاحِبُهُم
للقبض على المرأة المختالة ، فلَمَّا قَبَضْنَا عَلَيْهَا جِئْنَا بِهَا إِلَى هُنَا ، وَجَلَسْنَا
فَنَتَظَرُّكَ حَتَّى تَصْحَوْ مِنَ النَّوْمِ فَنَعْرُضَ أَمْرَهَا عَلَيْكَ ، فَأَخَذْتَنَا سَنَةً
مِنَ النَّوْمِ ، فَلَمَّا هَبَبْنَا لَمْ نَجِدِ الْمَرْأَةَ فَسَأَلْنَا عَنْهَا فَقِيلَ لَنَا إِنَّهَا بِحَضْرَةِ
السَّيِّدَةِ ، ثُمَّ أَرْسَلَتْ لَنَا السَّيِّدَةُ تَوْصِيَنَا خَيْرًا بِالْخَمْسَةِ الرِّجَالِ الَّذِينَ جَاءَتْ
بِهِمُ الْمَرْأَةُ .

وَنَظَرَ الْوَالِىَ إِلَى التَّاجِرِ حَسَنَ وَرَفَاقِهِ وَقَالَ :

إِذْنًا ؛ هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةُ هُمُ الَّذِينَ اشْتَرَيْتَهُمْ بِمَالِي ! !

فَصَاحَ التَّاجِرُ حَسَنٌ وَإِخْوَانُهُ يَقُولُونَ :

نَحْنُ أَحْرَارٌ لَا نُبَاعُ وَلَا نُشْتَرَى . إِنَّ هَذِهِ اللَّعْبَةُ قَدْ لَعَبَتْهَا
عَلَيْكُمْ الْعَجُوزُ الْمُخْتَالَةُ ، كَمَا لَعَبَتْ أَمْثَالَهَا عَلَيْنَا مِنْ قَبْلُ .

فقال الوالى :

لَوْلَاكُمْ مَا دَخَلَتْ الْعَجُوزُ بَيْتِي ، وَلَا اتَّصَلَتْ بِحَرِيمِي ، وَلَا
سَلَبَتْ مَالِي .

فقالوا :

ليسَ لنا بكلِّ ذلكَ شأن .

ثم قالَ بعضهم لبعض :

هيا بنا إلى الخليفة فهو مُنصفنا منك .

٥

في هذه الفترة التي مرَّتْ كانَ الأميرُ حسنٌ - زوجُ خاتونَ التي احتالتَ عليها دليلاً في أوَّل الأمرِ وسلَّبتْها ملابسها وحُلِيِّها - قد جاءَ من سفره ، وقصَّتْ عليه زوجته ما كانَ بينها وبينَ المختالة ، فغضبَ لذلكَ أشدَّ الغضبِ ، وأسرعَ إلى بيتِ الوالى وهو يقول :

لا يلزَمُ بذلكَ إلاَّ الوالى ، فهوَ المسئولُ الأوَّلُ عن الأمنِ ، وسلامةِ أموالِ النَّاسِ وأرواحهم .

وكانَ وصولُهُ إلى بيتِ الوالى فى الوقت الذى كانَ فيه التاجرُ حسنٌ ورفاقه يتشاحنونَ فيه معَ الوالى ويُطالبونه بالذهابِ مَعَهُم إلى الخليفة .

وقالَ الأميرُ حسنٌ للوالى :

كيفَ تكونُ والياً على المدينة ، وتتركُ العجائزَ يسرحنَ ويمرحنَ بها وينهبينَ أموالَ النَّاسِ ؟ !

فقال الوالى :

إن رجالى كانوا لا يعرفون العَجُوزَ ، فلما أرسلتُهُم مع هؤلاء الخمسة الذين يعرفونها قبَضُوا عَلَيْهَا وجاءوا بها ؛ ولكنها فرّت منهم بعد أن احتالت على أهل البيت ، وأنا على استعداد لإعطائكم من رجالى ما تطلبون فى سبيل البحث عنها من جديد .

فقبل الأميرُ حسنٌ ما عرَضَ الوالى من رأى ، وقال للوالى :
هات الرجال حتى أوزعهم على أرجاء المدينة للبحث عن تلك العَجُوز الداهية .

فجاءه الوالى بما طلبَ من رجال ، فقسّمهم الأميرُ حسنٌ إلى جماعات جعلَ على كل جماعة رجلاً من الرجال الخمسة الذين احتالت عليهم دليلاً .

وبينما جماعةٌ من هذه الجماعات تطوفُ يوماً بناحية من نواحي المدينة وعلى رأسها الحمّارُ ، إذُ به يُشاهدُ دليلاً تسيرُ فى الطريق ، فعرفها رغمَ حذرِها وتنكرها ؛ فأمرَ من معه من الرجال بالقبض علىها ، فأمسكوها ، وأتوا بها إلى الوالى فى الحال .

وشاعَ بينَ الناس أمرُ القبض على عَجُوز محتالة تُدعى دليلاً ، فعرفَ التاجرُ حسنٌ ورفاقهُ ومن معهم من رجال الوالى بالخبر ، فأسرَعُوا إلى بيت الوالى يتعرّفون صحته ، فوجدوا الوالى يُحققُ مع دليلاً ويسألها :

أينَ حاجاتُ الناسِ التي سَلَبَتْها أيتها العجوزُ التي أزعجت
الآمنينَ والآمناتِ ؟

ودليلةُ لا تجيبُ إلاَّ :

ما رأيتُ وما أخذتُ شيئاً .

فقالَ الوالى لسجَّانه :

خذْ يا سجانُ هذه العجوزَ واسجنها ، وتحفَظْ عَلَيْها حتَّى
نجلدها إذا لمْ تعترفْ .

فقالَ السَّجَّانُ :

يا سيِّدى ؛ إنَّ هذه المرأةَ ليستْ ككلِّ النساءِ ، ولا ككلِّ الرجالِ
الذينَ أقومُ بسجنهمْ ! . . . إني أخافُ أنْ تعملَ حيلةً تُفرُّ بها من
السجنِ وأكونُ أنا مُلْزَماً بها .

فقالَ الوالى :

اسحبوها إذنْ . حتَّى نصلبها خارجَ المدينة ما دامتْ لمْ تُقرْ بما
فَعَلَتْ .

وركبَ الوالى حصانه ، وساقَ رجاله دليلاً ، وساروا جميعاً إلى
ظاهرِ المدينة حيثُ كانَ هُنَاكَ عمودٌ مُعَدٌّ لصلبِ المجرمينَ والقَتَلَةِ .
فأمرَ الوالى بصلبِ دليلة فيه . فصلبها الرجالُ ، وأحكموا وثاقها ،
وانصرفَ الوالى عائداً هوَ ومنْ معهُ بعدُ أنْ تركوا للملاحظة دليلةَ
وحراستها عشرةً من الرجالِ الأشداءِ .

وأُمسى المساء ، وأقبلَ الظلامُ ، وجنَّ الليلُ ، ودليلةٌ في مَصْلَبِهَا
 وحُرَّاسُهَا بالقرب منها يتحدَّثون ويسْمُرُونَ ، حتَّى إذا ما انتصفَ
 الليلُ قلَّ فيما بينهم الحديثُ ، وخَفَّتْ منهم الأصواتُ ، ثمَّ لمْ
 يلبثوا أن طَافَ بأجفانهم طيفُ النَّومِ ، فقالَ بعضهم على بعضٍ ،
 ومن ثَمَّةَ تَوَسَّدوا أذرعهم ثم رَاحُوا في سُبَات عميق .
 وقبيلَ الفَجْرِ سمعتُ دليلةً التي لم يطرُق جفنيها النومُ لما هَيَّ
 فيه من ألمٍ وعَذَابٍ ، صوتَ حَوَافِر دابةٍ مقبلة من جهة الصَّحراء نحوَ
 المدينة ، فَأَنْصَتَتْ تَتَسَمَّعُ . فَسَمِعَتْ صوتَ قائلٍ يقول ، وكأنه
 يُنْشِد :

آه يا زَلَّابِيَّة ! يَا زَلَّابِيَّة . . . ! آه كم أنا جَوَّعَان ، ولكني
 لن أَكُلَ شَيْئاً حتَّى أدخَلَ المدينةَ وأذوقَ الزَّلَّابِيَّة ! . .
 فأدركتُ دليلةً من الصَّوت أنه لرجُلٌ بدوى يُبغى دخولَ بَغْدَاد ،
 وَيَشْتَهِي أَكْلَ الزَّلَّابِيَّة .

فَجَعَلَتْ تَنْزُّ وَتَتَأَوَّهُ ، فلَمَّا جَازَ بها الراكِبُ وَسَمِعَ التَّأَوَّهُ
 والأَنِينَ ، تَوَقَّفَ عن سَيْرِهِ يُنْصِتُ ، ثم اتَّجَهَ نحوَ الصَّوتِ ، فرأى
 دليلةً ، وهى مَصْلُوبَةٌ على العَمُودِ ، مشدودةٌ بالحبالِ فاستعْجَبَ
 وقالَ ، في صَوْتٍ خَافَتْ :

مَنْ هُنَا ؟ وَمَا هَذَا ؟ !

فردَّتْ دليلةٌ بصوتٍ خَافَتْ :

أنا في جبرتك يا شيخ العرب .

فقال الرجل :

أجارك الله بما أنت فيه ! . . من أنت ؟ . . وما سبب صلبك ؟
قالت دليلة :

أنا عجوز مسكينة من أهالي بغداد . أمّا سبب صلبى فبسيط ،
وهو أنى كنت أسير بالطريق ، فررت من أمام دكان رجل يبيع
الحلوى ويقلى الزلاية ، وصادف أنى بصقت ، فجاءت بصفتى
على الزلاية ، فأمسك بى الرجل صاحب الدكان ، وساقنى إلى الحاكم
وقال له :

هذه المرأة بصقت على زلايتى أمام الناس .

فسألنى الحاكم :

لم بصقت على الزلاية ؟ ألا تحيينها ؟ !

قلت :

أنا لم أبصق عليها متعمدة ، بل كان ذلك على غير قصد منى .
ولكن بائع الحلوى كان رجلاً فظاً قاسياً ، يكرهنى ويحقد
على ، فعارضتنى وكذبنى وقال :

إنها بصقت على الزلاية عامدة متعمدة فائلة : إنى أكرهها ،
وشهد على اليهود بأنى لا آكل الحلوى كثيراً ، فصدقهم الحاكم
وحكم على بأكل عشرة أرطال زلاية بعسل وأنا مصلوبة ، فإن

أكلتها أطلقوني ، وإن لم آكلها تركوني مصلوبةً ، وأنا نفسي لا تقبلُ الحلو ؛ ولن أستطيع أكلها .

فقال البدوي :

يا للصدف العجيبة . . ! وذمة العرب إنني ما أتيتُ من النّجع إلاّ لكي آكلَ زلايةً بالعسل . متى يحيئونَ لك بها ؟ وأنا آكلها بدلاً عنك .

قالت :

سيجيئونَ بها الآن قبلَ مطلعِ الفجر ، ولكن كيف تأكلُها بدلاً عني ؟ ! إنهم سيُطعمونني إياها وأنا مصلوبةٌ هكذا ، ولنُستطيع أكلها إلا من اتخذَ موضعي .

فقال لها البدوي :

أنا أحلُّ وثاقي ، وأتخذُ موضعك ، وآكلُ الزلاية بدلاً عنك ، وإن عرفوني فليكن ما يكون .

قالتُ دليلاً :

إذن ، أسرعْ فحلّ وثاقي ، واتخذْ موضعي قبلَ أن يحضروا إلى بالزلاية ، بارك اللهُ فيك يا أخا العرب .

فحلّ البدوي وثاقَ دليلة ، واتخذَ موضعها ، فقيدتهُ فيه بعدَ أن أعطاها عباءته ، وسلّمها فرسه ، لتنتظرهُ بهما في مكان قريب .

وسحبتُ دليلةُ الفرسَ حتّى إذا ما ابتعدتُ عن البدوي تلفّعتُ



إننى ما أتيت من النجى إلا لكى أكل زلاية بالعدل...

بالعباءة ، وركبتُ الفرس ، وسارتُ بها متَّجهةً نحو المدينة .
ومعَ الفجرُ استيقظَ أحدُ الحراسِ المكلفينَ بحراسةِ دليلة ، فوجدَ
أصحابه يُجانبه نياماً ، ولم يسمعَ لدليلة حسّاً ، فأوجسَ خيفةً ،
وخافَ أن تكونَ قد فرَّتْ أو ماتتْ ، فسارَ إلى مصلبها ونادى عليها
قائلاً :

دليلة . . . !! دليلة . . . !!

فقال البدوي :

أنا ما أريدُ بكيلة . . . أنا أريدُ زلايبة . . .
فتعجبَ الحارسُ لسماعه صوتَ البدوي ، فتقدّمَ منه ، وتفرّسَ
فيه ، ثم قالَ لهُ وقد ازدادَ عجباً ودهشةً :
من أنتَ ؟ وأينَ المرأةُ التي كانتَ مصلوبةً هنا ؟ !
فقالَ البدوي :

يا أخا العرب ، أنا فككتُها ، وحللتُ محلَّها ، لأكلَ الزلايبة
عوضاً عنها ، فهي امرأةٌ عجوزٌ لا تستسيعُ نفسها أكلَ الحلو .
فأدركَ الحارسُ أن دليلة قد لعبتْ لعبةً على هذا الرجلِ البدوي
وفرَّتْ هاربةً ، فأسرَعَ إلى رفاقه يوقظهم من نومهم ، ويُعرفهم بما
جرى .

وأسقطَ في يد الحراسِ ، وحراروا فيما يفعلون ، فعَمَّ قليلُ سيّاقِي
الوالى ليرى نتيجةَ صلبِ دليلة ، وهلْ هي أقرَّتْ بما فعلتْ ، واستعدتْ

للإرشاد عما سَلَبَتْ فيخلى سبيلها ، أم أنها لا تريد الاعتراف فيدعها في مَصْلَبها أو ينقلها إلى أحد السجون .

وتساءلَ الحراسُ :

أنفَرُّ قبل أن يأتى الوالى ؟ أم نَظْلُ كما نحن ، ونتَقَبِّلُ مصيرنا كيفما يكون ؟ !

وبينما همُ كذلك فى أخذ وردّ وتساؤل وحيرة ، إذ أقبلَ الوالى وجماعته عليهم ، وقال لهمُ :

أنزلوا دليلاً . . .

فقالَ البدوى :

ما أريدُ بَلِيلَةً ، أنا أريدُ الزَّلايَةَ بالعَسَلِ .

فقدَ ظنَّ البدوى أن الوالى وجماعته هم الجماعةُ المكلّفون بإحضار الزلاية ، وأنهم قد أحضروا عوضاً عنها بَلِيلَةً .

ونظرَ الوالى إلى المصلّبة ، فوجدَ البدوى مصلوباً فيها بدلاً من دليلاً ، فسألَ الحراسَ مُنكراً ما رأى :

ما هذا ؟ !

فتقدّموا منه قائلين :

أعطينا الأمان يا سيدنا الوالى .

قال :

تكلّموا ، ماذا جرّى ؟ !

قالوا :

لقد سهرنا بجانب دليّةٍ حتّى انتصفَ الليلُ ، فأخذتنا سنةٌ من النوم ، فمنا على اعتقاد أنّ دليّةً في مصلّبها لا حول لها ولا قوّة ، واستيقظنا مع الفجر فوجدنا هذا الرجلَ البدويّ مصلوباً بدلاً منها . فاقترَبَ الوالى من البدويّ وسأله :

ما أمرك يا رجل ؟ ! من الذى صلبك هنا ؟ ! وأين المرأة المحتالة التى كانت مكانك ؟ !

فقصّ البدويّ ما كان من أمره مع دليّة ، فأمر الوالى بإنزال البدويّ ، فلما أنزلوه تعلّق بشباب الوالى وهو يبكي قائلاً :

أريدُ ثياني وفرسي .

فنهره الوالى بقوله :

أما يكفيك ما سببتَ لنا من تعبٍ وخرج بعمّلك على إفلات دليّة من يدنا بعد أن أعيتنا الحيلُ في القبض عليها حتّى تطالبنا بشبابك وفرسك ! وفي هذه اللحظة أقبلَ التاجر حسن والصباغُ والحمارُ والحلاقُ واليهوديّ ، وما كادوا يلُمّون بما جرى ويعلمون بإفلات دليّة حتّى صأحووا على الوالى قائلين له :

ليسَ لنا بما حصل شأن . لقد قبضنا على العجوز المحتالة ، وسلمناها لك ، فصارتَ بذلك في عهدتك ، فالآن لا نلتزم حاجاتنا وأموالنا إلا منك .

قال :

لقد أصابني من هذه العجوز المحتالة مثل ما أصابكم ، وقد أعياني
خُبثُها ومكرُها .

قالوا :

هياً بنا إلى الخليفة ، فهو الذى يَفْصِلُ بيننا وبينك .
خرجَ الوالى وضحايا العجوز إلى الخليفة ، وهُنَاكَ فى مجلس الخليفة
كانَ الأميرُ حسن زوجُ خاتون وصاحبُ ديوان الشرطة بحضرة الخليفة ،
عند ما حضرَ الوالى وجماعته ، والتاجرُ حسن ورفاقه ، لعرض أمرهم
وبيان خصامهم له .

وبينَ يدي الخليفة سرد كل منهم قصتهُ وبين حاجته ؛ فقال
الخليفةُ للأمير صاحب ديوان الشرطة :
أَتتعهدُ بهذه المرأة المحتالة أيها الأمير ؟
فقالَ الأميرُ حسن :

يا مولائى ؛ إنَّنى صاحبُ حق مثلهم ، وأحقُّ الناس أن يتعهدَ
بها الوالى .

فأسرَعَ الوالى يقول :

يا مولائى ؛ أعفنى من هذه المهمة ، لقد قَبَضْتُ على هذه المرأة ،
ولكنَّها فرَّتْ منى ومن رجالى .
فقالَ الخليفةُ :

ومن تَظُنُّ أولى بأن أعهدَ إليه في البحث عنها سواك ؟ !
فقالَ الوالى :
اعهد بذلك إلى أحمد الدنف ، فإنَّ لهُ في الشَّهر ألفَ دينار ،
وإنَّ لهُ من الأتباع أربعين تابعاً .
قال الخليفةُ :
علىَّ بأحمد الدنف .
فلمَّا حضرَ قالَ له :
قد وكلتُ إليك وإلى جماعتك القبض على المرأة العَجُوزِ
المحتالة المسماة دليلة .
فقالَ أحمدُ الدنف :
سمعاً وطاعةً ، قد تعهدتُ لكَ بذلك ، وأنا لها . . .

٦

وسارَ أحمدُ الدنف إلى إيوانه ليجتمعَ بأعوانه ، كما أرسلَ إلى
حسن شومان مقدم الميسرة ليستشيرَه فيما يجبُ عليهما اتخاذه للقبض
على دليلة . ولما اجتمعَ جمعُهم قالَ أحمدُ الدنف لحسن شومان :
بماذا تُشير يا حسن ؟ ماذا نتبعُ من الطرُق للقبض على دليلة ؟
إنَّ هذا امتحانٌ لى ولك ، وبقاؤنا فى عملنا متوقفٌ على نجاحنا فى

القبض على دليلة المحتالة .

فقالَ أحدُ مساعدي أحمد الدنف - واسمهُ عليُّ كتيف
الجمال :

لماذا لا تستشيرُ غيرَ حسن شومان ؟ ! هلُ حسن شومان يزيدُ
عنا خبرةً ، ويبرعُ في استنباط الحيلة ؟ !
فقالَ حسن شومان :

هل تريدُ بقولك هذا يا علي الخطَّ منْ شأنِي ؟ ! والانتقاصَ منْ
قدري ؟ ! قسمًا بالله إنني لنْ أشارككمُ في هذا المجلس برأى ، ولنْ
أخرجَ معكمُ في هذه المرَّة إلى بحث .

ثم نهضَ فغادر المكانَ ساخطًا غاضبًا .

فقالَ أحمد الدنف لعل كتيف الجمال :

أهكذا تغضبُ حسن شومان يا علي ؟ !

إنه صديقُنَا ورفيقُنَا ، ومُعِينُنَا في الأزمات ، وملجؤُنَا في النكبات !
قال علي :

يا معلمي ؛ إنني ما أردتُ إغضابه ، ولكني أنا ساعدك الأيمنَ
فشاورني كما تشاوره .

قال أحمدُ الدنف :

وبماذا تُشير ؟

قال علي :

نُقَسِّمُ أَنْفُسَنَا إِلَى عَشْرَاتٍ ؛ عَلَى إِحْدَاهَا أَنْتَ ، وَعَلَى الثَّانِيَةِ أَنَا ،
وَعَلَى الثَّلَاثَةِ وَالرَّابِعَةِ مَنْ يَقَعُ عَلَيْهِمَا اخْتِيَارُكَ . وَنُقَسِّمُ الْمَدِينَةَ فِيمَا بَيْنَنَا
أَفْسَاسًا ، ثُمَّ نَبْحَثُ فِي شَوَارِعِهَا وَأَزْقَتِهَا جَمِيعَهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَبِذَلِكَ
نُضَيِّقُ الْخَنَاقَ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُحْتَالَةِ ، فَيَتَيَسَّرُ لَنَا الْقَبْضُ عَلَيْهَا .
وَعَلَى هَذَا قَسَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَسَارُوا لِلْبَحْثِ عَنْ دَلِيلَةٍ بَعْدَ أَنْ
اتَّفَقُوا عَلَى الْإِلْتِقَاءِ فِي مَكَانٍ مُعَيَّنٍ فِي سَاعَاتٍ حَدَدُوهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ .
وَكَانَ الْخَبْرُ قَدْ ذَاعَ وَشَاعَ فِي الْمَدِينَةِ بِأَنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ عَاهَدَتْ إِلَى
أَحْمَدِ الدَّنْفِ فِي الْبَحْثِ عَنْ امْرَأَةٍ مُحْتَالَةٍ اسْمُهَا دَلِيلَةُ ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ
لَأُمِّهَا :

أَرَأَيْتِ يَا أُمِّي ؟ ! هَذَا أَحْمَدُ الدَّنْفِ الَّذِي مَا فَعَلْتَ هَذَا كُلَّهُ
إِلَّا نِكَايَةً فِيهِ ، قَدْ خَرَجَ لِلْقَبْضِ عَلَيْكَ .
فَقَالَتْ دَلِيلَةُ لَا بِنْتَهَا :

يَا بِنْتِي أَنَا مَا أَخَافُ أَحْمَدَ الدَّنْفِ ، وَلَكِنِّي أَخَافُ حَسَنَ شُومَانَ ،
فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُنِي ، وَيَعْرِفُ أَيْنَ أَقِيمُ .
فَقَالَتْ زَيْنَبُ :

وَاللَّهِ يَا أُمِّي لِأَهْزَانٍ لَكَ بِأَحْمَدَ الدَّنْفِ وَاتَّبَاعِهِ ، وَأَجْعَلُهُمْ مَوْضِعًا
لِلضَّحْكِ وَالسَّخَرِيَّةِ ؛ لَا تَبْرَحِي أَنْتِ الدَّارَ وَسَوْفَ تَرَيْنِ مَا أَنَا فَاعِلَةٌ .
وَتَزَيْنَتْ زَيْنَبُ وَتَعَطَّرَتْ ، وَانْتَزَرَتْ بِإِزَارِهَا ، ثُمَّ غَادَرَتْ الدَّارَ .
وَسَارَتْ زَيْنَبُ حَتَّى أَتَتْ إِلَى رَجُلٍ تَاجِرٍ عَطَّارٍ ، لَهُ دَارٌ

خالية، يتخذها مخزنًا لبعض تجارته وموضعًا يصنع فيه ما هو في غنى عنه من الصناديق والعلب . فقالت له :

هل لك يا سيدى أن تؤجرنى بعض قاعات من دارك الحالية لمدة يوم واحد ، لأن أختى وقد عليته جماعة من التجار ويريد أن يؤلم لهم وليمة ، ودارنا صغيرة ضيقة .

ثم أخرجت زينب من جيبها ديناراً ودفعته إلى الرجل قائلة :
وهاك ديناراً أجرة هذا اليوم الذى سأحتاج فيه إلى دارك . وفى آخر النهار أعيد إليك المفاتيح .
فقال العطار :

يا ابنتى ؛ انزلى أنت وأخوك وضيوف أخيك بالدار على الرحب والسعة . وامكثوا فيها ما تشاءون أن تمكثوا .
ثم قام العطار وزينب إلى الدار ، فأخلى لها بعض قاعاتها ، وسلمها مفاتيحها ، وانصرف .

فعدت زينب إلى دارها ، فحملت على الحمار والفرس اللذين سلبتهما أمها من الحمار والبدوى بعض المفروشات والأواني ، وابتاعت بعض الأطعمة والمشروبات ، ثم عادت إلى الدار التى استأجرتها ففرشت أربع قاعات منها ، ووضعت فى كل قاعة بعض الأواني والطعام والشراب ، ثم خرجت فوقفت على باب الدار دون حجاب أو إزار .
وما هى إلا برهة وجيزة حتى دخل إلى الحارة التى بها الدار التى

استأجرتها زينبُ على كَتْفِ الجملِ مَعَ أتباعه العشرة في طوافهم للبحث
عن دليلة ، فما إن رآتهم زينبُ وهي بموقفها بباب الدار حتى أشارتُ
إلى علي ، فلما جاءها سألتُه :
أ أنت يا سيدي المقدمُ أحمدُ الدنف ؟

فقال لها علي :
لا ، ولكني من رجاله ، واسمى علي كَتْفِ الجمل . هل من
خدمة نُؤدِّيها ؟
قالت :

اعلم يا سيدي أن أبي كانَ خماراً بالموصل ، وماتَ بعدَ أن
خلفَ لي مالاَ وفيراً ، فحفتُ من اضطهاد النَّاسِ ، وظلم الحكَّامِ ،
فجئتُ إلى هنا لأزوالَ عَمَلِ أبي ، وسألتُ : من يحميني هنا فأُلجأُ إليه ؟
فقال لي : لا يحميك في هذا البلد إلا المقدمُ أحمدُ الدنف .
فقال لها علي :

ستكونين إن شاءَ اللهُ عن قريب في حمايته .
فقالت زينبُ :
بشركَ اللهُ بالخير يا مقدم علي . ألا سَمَحْتَ فشرَفْتَنِي أنتَ
ورجالك بتناولِ شيءٍ من الطعام أو الشراب علي مائدتي ؟
فقال علي :
بَل الشَّرَفُ لنا في ذلك يا سيدي .

فأدخلتهم زينبُ إلى إحدى القاعات التي فرشتها ، وأحضرتُ لهمُ الطعامَ . وصبتُ لهمُ الشرابَ الذي أعدتهُ لهمُ ، فما كادوا يشربونه حتى مالت رؤوسهم فوق صدورهم ، ثم استلقوا في سبات عميق . ونظرتُ زينبُ إليهم ضاحكةً شامتةً ، ثم حملت الطعام والشرابَ إلى قاعة أخرى . وأذابتُ بإناء الشراب قرصاً من البنج ، وكانت قد فعلتُ مثلَ ذلك في المرة الأولى ، ثم ذهبتُ ووقفتُ ثانيةً بباب الدار بعد أن أغلقتُ بابَ الغرفة على المخدّرين . وما هي إلا برهةٌ حتى دخلَ إلى الحارة جماعةٌ أخرى من جماعات أحمد الدنف .

وما إن رأتهمُ زينبُ حتى نادتهم وجرى بينها وبينهم ما جرى بينها وبين جماعة على كتف الحمل . وبعد أن أدخلتهم إلى غرفة أخرى وسقّتهم الشرابَ الذي به مذابُ البنج - أغلقتُ عليهم البابَ . وعادت إلى موقفها بباب الدار .

وكانت بقيةُ جماعة أحمد الدنف قد ذهبوا إلى المكان الذي اتفقوا على الالتقاء فيه . فلم يأت إليهم أصحابهم ، فذهبوا إلى الجهات التي يعرفون أنّهم قصدوها ليبحثوا عنهم ؛ وما زالوا يبحثون حتى دخلت جماعةٌ منهم إلى الحارة التي تنتظرهم بها زينبُ ، فكان بينها وبينهم ما كان مع أصحابهم من قبل . وعادتُ زينبُ إلى موقفها تنتظرُ وفودَ البقية الباقية من الجماعة التي لم

تَلَبَّثُ أَنْ جَاءَتْ وَعَلَى رَأْسِهَا أَحْمَدُ الدَّنْفُ ، وَمِنْ ثَمَّةٍ لَمْ يَكُنْ مُصِيرُ أَحْمَدِ الدَّنْفِ مَعَ زَيْنَبَ خَيْرًا مِنْ نَصِيبِ بَقِيَّةِ رَجَالِهِ ، فَمَا هِيَ إِلَّا هُنَيْهَةٌ حَتَّى كَانَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَرْقُدُونَ غَائِبِينَ عَنِ الْوَعَى بِآخِرِ غُرْفَةٍ أَعَدَّتْهَا زَيْنَبُ لِهَذَا الْغَرَضِ .

ثُمَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ شَمَرَتْ عَنْ سَاعِدِهَا ، فَأَقْبَلَتْ عَلَى الرِّجَالِ الْأَرْبَعِينَ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ رَئِيسُهُمْ أَحْمَدُ الدَّنْفُ ، فَجَرَدَتْهُمْ مِمَّا مَعَهُمْ مِنْ أَسْلِحَةٍ وَأَهْوَالٍ ، وَخَلَعَتْ عَنْهُمْ كُلَّ مَا اسْتَطَاعَتْ خَلْعَهُ مِنْ مَلَابِسٍ ثُمَّ جَمَعَتْ الْمَلَابِسَ وَمَا كَانَتْ قَدْ فَرَشَتْ بِهِ الْقَاعَاتِ مِنْ فَرَاشٍ ، وَحَمَلَتْهَا جَمِيعًا فَوْقَ الْفَرَسِ وَالْحِمَارِ ثُمَّ أَذَابَتْ تَرِيقًا ضِدَّ الْبَنِيْجِ فِي إِنْاءٍ ، وَأَخَذَتْ قَلِيلًا مِنْهُ وَصَبَّتْهُ فِي فَمٍ عَلَى كَتِفِ الْجَمَلِ . وَوَضَعَتْ عَلَى فَمِ الْإِنْاءِ غِلَافَ التَّرِيقِ وَقَدْ كُتِبَ عَلَيْهِ مَا يُفِيدُ أَنَّهُ ضِدُّ الْبَنِيْجِ ، ثُمَّ سَاقَتْ الْحِمَارَ وَالْفَرَسَ وَأَسْرَعَتْ بِمَغَادِرَةِ الدَّارِ .

وَابْتَدَأَ عَلَى كَتِفِ الْجَمَلِ يُفَيِّقُ . ثُمَّ فَتَحَ عَيْنَيْهِ يَدِيرُهُمَا فِيمَا حَوْلَهُ ، فَوَجَدَ رَجَالَهُ السَّعَةِ يَرْقُدُونَ فَوْقَ الْأَرْضِ دُونَ فَرَاشٍ ، وَهُمْ عَرَايَا إِلَّا مِنْ صِدَارٍ وَسُرْوَالٍ ! !

وَدُهِشَ عَلَى كَتِفِ الْجَمَلِ وَاشْتَدَّ بِهِ الدَّهْشُ ، وَقَامَ إِلَى أَصْحَابِهِ يُوقِظُهُمْ وَيُنَبِّهُهُمْ ، وَلَكِنْ دُونَ جَسَدِي . فَخَرَجَ مِنَ الْقَاعَةِ يَبْحَثُ عَنِ الْفَتَاةِ الَّتِي أَضَاغَتْهُمْ وَيَرَى مَنْ فَعَلَ بِهِ وَبِرَجَالِهِ هَذَا النِّعْلَ الشَّائِنَ الْمَرْزِيَّ ، فَوَجَدَ ثَلَاثَ قَاعَاتٍ بِكُلِّ مِنْهَا عِدَّةٌ مِنَ الرِّجَالِ يَرْقُدُونَ

هم الآخرون على الأرض ، وقد نزعَتْ عنهم ملابسهم الخارجية ،
ففرسَ فيهم فما كان أشدَّ عجبَه حينَ وجدهمُ بقيَّةَ أصحابه ،
كما يرقدُ بينهم رئيسهُ أحمدُ الدنف .

ووقفَ على يفكر في ذهول ، ويسأَلُ نفسه : من فعلَ بهم
هذا الفعل ؟ ومن خدعهم هذه الخدعة ؟ !

وتبلَّجَت الحقيقةُ في ذهنه رويداً رويداً ، وعرفَ أنه هوَ
وأصحابه الأربعون قد وقعوا صيداً لفتاةٍ محتالةٍ نصَّابةٍ ، ضحكت
عليهم ، وسخرت منهم . وهزأت بهم .

ولم يكنْ لدى على كُفَّ الجمل وقتٌ للتفكير في أمر الفتاة ،
أو البَحْث عنها ، بل كانَ جُلُّ همِّه أن يعملَ على إفاقة إخوانه
وتنبيههم مما همُّ فيه .

ووقعتْ عيناه على الإناء الذي تركتهُ زينبُ وعليه الورقةُ التي
تشيرُ إلى ما به ، فجعلَ يصبُّ منَ الإناء في فمِ أصحابه حتى أفاقوا ،
فأخبرهم بما كانوا جميعاً عليه ، ورأوا همُّ ما حلَّ بهم ، فعزَّ عليهم
أن يُصيبتهم ما أصابهم على يد فتاةٍ وهمَّ واحدٌ وأربعون رجلاً ،
وقال أحمدُ الدنف :

يا رجالُ ، ما أصابنا الذي أصابنا إلاَّ بسببِ دليَّةِ المُتَّالَةِ .
لقد تعهدنا بصيد عجوزِ هَرَمَةٍ ، فصادتنا فتاةٌ حدثَّةٌ .

فقالَ الرجالُ وقد أسخطهم ما حلَّ بهم . وحزَّ بنفوسهم ما أصابهم :

تالله لو وقعت هذه الفتاة النصابة بأيدينا ، لنجعلنها عبرة لمن
يعتبر !

فقال أحمد الدنف :

الرأى الآن أن تروا لأنفسكم مخرجاً مما أنتم فيه .
كيف تغادرون هذا المكان وأنتم من غير ملابس ؟ ! وكيف
تسيرون فى الطرقات وأنتم بهذه الهيئة . . ؟ ! وكيف تكون شامة
حسن شومان فيكم ، وسخريته منكم . . ؟ !
فقال الرجال :

ما لنا إلا أن ننتظر حلول الليل . ثم نتسلل واحداً بعد
الآخر .

وعمل الرجال بهذا الرأى ، فما إن أسدل الليل سدوله ، وابتدأت
الطُرقات تخلو من المارة ، حتى غادروا الدار متسللين واحداً بعد الآخر
حيث قصدوا إلى إيوانهم .

وكان حسن شومان قد أحس بغياهم ، فجاء إلى إيوانهم يلتمس
أخبارهم ، فوجدهم يقدون على حالهم هذا المضحك المزرى ، فلم
يملك نفسه من أن ضحك ساخراً منهم وسألهم :

ماذا دهاكم ؟ ومن عراكم وأخذ ملابسكم ؟ !

قالوا :

تعهدنا بعجوز فعرتنا صبية !

فقال حسن شومان وهو يَضْحَك :

نعم ما فعلتُ بكم زَيْنَب . . . !
قالوا بلهفة :

زَيْنَب . . . ! مَنْ زَيْنَب . . . ؟ ! أتعرفها . . . ؟
أجاب :

أعرفها وأعرف أمَّها العَجُوز . . . !
قالوا :

ولماذا لم تُخبرنا بذلك ؟ !
قال :

وهل أنتمُ شَاوَرْتُمُونِي واستمعتُمُ لِنُصْحِي ؟ !
قال أحمدُ الدنف :

وماذا تنوى أن تفعل ؟
قال حسن شومان :

انفض يدك من هذه المهمة لدى الخليفة ، وقلْ له أنا لا أعرف
هذه العجوزَ المحتالةَ ولكن حسن شومان يعرفها ، فاعهد بأمرها إليه .
وأنا كفيلٌ بالقبض عليها .

وفي الصباح قصد أحمد الدنف وحسن شومان إلى ديوان الخليفة ،
فلما رآهما الخليفةُ سأل أحمد الدنف :

هل قبضت على العجوز المحتالة يا مُقَدِّمُ أحمد ؟

فأمسك أحمد بطوق رداؤه ونفضه . فسأله الخليفة :
لماذا تريد أن تتخلّى عن المهمة التي عهدت إليك بها ؟
قال أحمد الدنف :

لأنى لا أعرف العجوز ، ولكن حسن شومان يعرفها فاعهد
إليه بها .

فسأل الخليفة حسن شومان :
هل تعرف العجوز المحتالة يا مُقَدِّم حسن ؟
أجاب حسن :
نعم أعرفها هي وابنتها ، وأعرف أين تُقيمان .
فسأله الخليفة :
وهل عندك علم بما أتت من حوادث ؟
فقال :

أنا لا أعتقد أنّها أتت هذه الحوادث لرغبتها في السلب
والنهب ، ولكنّها أتتها لرغبتها في إظهار نفسها للناس ، وإبراز مهارتها
وذكائها وحيلتها للخليفة .

فسأله الخليفة دهشاً :
وماذا تظنّ غرضها من وراء ذلك ؟ !
أجاب حسن :

لأن زوجها كان مقدّم المدينة السابق ، وكانت له رواتبُ

وجرايات حُرِمَتْ مِنْهَا بِمَوْتِهِ فَأَرَادَتْ أَنْ تُلْفِتَ الْأَنْظَارَ لِيُعْهَدَ إِلَيْهَا
بشئ ع ، أو يَرْتَبَ لَهَا شئ ع .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُُ بَغَضَبٍ :

وَلَكِنَّهَا بِمَا فَعَلْتَ لَيْسَ لَهَا عِنْدِي إِلَّا الْمَوْتُ ، اذْهَبْ وَاقْبُضْ
عَلَيْهَا وَائْتِنِي بِهَا .

فَقَالَ حَسَنُ شُومَانَ لِلْخَلِيفَةِ يَلْتَمِسُ الشَّفَاعَةَ لِدَلِيلَةٍ :

يَا مَوْلَايَ ؛ اقبلْ شَفَاعَتِي فِيهَا عَلَى أَنْ تُرَدَّ جَمِيعَ مَا أَخَذْتُ مِنْ
الْحَاجَاتِ وَالْأَمْوَالِ إِلَى أَصْحَابِهَا .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُُ :

قَبِلْنَا شَفَاعَتَكَ ، فَهَاتِهَا حَتَّى نَنْظُرَ فِي أَمْرِهَا .

قَالَ حَسَنُ شُومَانَ :

أَعْطِنِي مِنْدِيلَ الْأَمَانِ يَا مَوْلَايَ .

قَالَ الْخَلِيفَةُُ :

هَآكِهِ . .

وَأَعْطَى الْخَلِيفَةُُ لِحَسَنٍ مِنْدِيلَ الْأَمَانِ ، فَأَخَذَهُ حَسَنٌ وَتَوَجَّهَ إِلَى
بَيْتِ دَلِيلَةٍ ، فَفَرَعَ الْبَابَ وَنَادَاهَا ، فَردَّتْ عَلَيْهِ ابْنَتُهَا زَيْنَبُ .
فَسَأَلَهَا :

أَيْنَ أَمْكُ ؟

سَأَلَتْ :

ماذا تُريدُ منها ؟

قال :

لقد جئتُ إليها بمنديل الأمان من الخليفة ، فقولى لها تأتى معى لمقابلته ، ومعها كلُّ ما أخذته من النَّاسِ . وإلا فلا تلومَنَّ إلاَّ نَفْسَهَا .

وسمعتُ دليلاً ما جرى من حوار بين ابنتها زينب وحسن شومان فخرجتُ إليه وقالت له :

أعطنى منديل الأمان .

فأعطاها حسن " المنديل " ، فأخذته ولقمته حول رقبته ، ثم أتت بحمار الحمَّار وفرس البدوى ، فحملت عليهما ما أخذته من خاتون زوجة الأمير حسن ، وما أخذته من التاجر حسن ، وما نهبتها من دكان الصَّبَّاغ ، وما أخذته من حلى ابن شاه بندر التجَّار وملابسه ، وما احتالت على أخذه من اليهودى والحلاق . ثم وضعت عباءة البدوى وقالت لحسن شومان :

هيا بنا إلى الخليفة .

فقال لها :

وأين ملابسُ صاحبي أحمد الدنف وملابسُ رجاله ؟ !

فقلت دليلاً :

أقسم لك بالله إنى ما أخذت منهم شيئاً .

فقال حسن :

صدقْتُ ولكنَّ ابنتك هي التي أخذت

قالت :

إذن فأنا ليسَ لي بذلك شأنٌ .

وعلى ذلك سار حسن شومان ودليلة يقودان الفرس والحمار حتى
وصَّلا إلى مقرِّ الخليفة .

ودخلَ حسن شومان يقودُ دليلةَ إلى الخليفة في مجلسه وقالَ له :
هذه هي المرأة التي كلَّفتني القبضَ عليها يا مولاي ، وأعطيتني
لها الأمان ، وقبلتَ فيها شفاعتي .

قالَ الخليفةُ :

نعم فقد سبقنا فقَبَلنا شفاعتك فيها ، رغمَ خطورة فعلها ، وعظم
جرُمها ، اللذين كان يجبُ أن يحلَّ عليها بسببهما القتل .

وقال الخليفة لدليلة :

ما اسمُك يا امرأة ؟

قالت :

اسمى دليلة .

قالَ :

بل ما أنت إلا خداعةٌ مُحْتَالَةٌ .

ثم أردف :

لماذا نهبت حاجات الناس ، وسلّبت أموالهم ؟

قالت :

أنا ما نهبتُ بقصد النهب ، وما سلّبتُ طمعاً في سلّاب أموال الناس .

قال الخليفة :

لِمَ ، إذن ، أتيت ما أتيت . وفعلت ما فعلت ؟

قالت :

لكي أثبتَ أني لا أقلُّ مهارةً وحيلةً عن أحمد الدنف وحسن شومان اللذين عيّنهما الخليفةُ - حفظه الله - في عمل زوجي ونسبي ونسي ابنتي ، أما حوائجُ الناس فقد جئتُ بها معي ليردها الخليفةُ لأصحابها .

فأمرَ الخليفةُ باستدعاء أصحاب الحاجات التي أخذتها منهم دليلاً ، فأتوا جميعاً ، فأمرَ الخليفةُ بتسليمهم حاجاتهم وأموالهم فتسلّموها . أما الحمّار فقد قال للخليفة مُتظلماً :

إنّ دليلاً المحتالة لم تكتفِ بأخذ حمارى يامولاي ، بل عملت على خلْعِ ضرسين من أضراسي وكى صدغى ؛ فأنا أطالبُها بتعويضِ عما أصابني من ضرر .

فقال الخليفة :

لكَ عندنا في مُقابل ذلك مائةُ دينار .

وقال الصَّبَّاغُ :

وأنا يا مولاي لم تقتصر خسارتي على ما أخذت من دكّاني ، بل
إنها تحملت على إتلاف ما بها من مبان وأدوات .
فقال الخليفةُ الخازنه :

اصرف للصَّبَّاغُ أيضاً مائة دينار لتعمير دكانه .
فصرّف الخازن لكل من الحَمَّار والصَّبَّاغ مائة دينار ، فأخذها
وهما يلهجان بالشكر للخليفة .

وانصرف الجميعُ كلُّ منهم بحاجته ، وسحبَ الحَمَّار حمّاره ،
وركبَ البدويُّ فرسه ، وهو يقول لها :
هياً بنا إلى باديتنا الجميلة ، حرامٌ على دخول بغداد ، وحرامٌ
على أكل الزلاية بالعتسل .

أما الخليفةُ فقد سألَ دليلاً :

ماذا تريدان يا دليلاً ؟

قالت دليلاً :

لقد كان أبي على خان الحمام الزاجل ، وحلّ زوجي مقدّمُ
بغداد السابق محلّه ، فأنا أريدُ نصيباً مما كان لأبي وزوجي ،
وابنتي تريدُ شيئاً مما كان لأبيها .

فقال الخليفةُ :

لك ما تريدان .

فقلت :

وأتمنى عليك أن تجعلنى حارساً لخان الحمام .

قال :

لك ذلك .

فدعتُ دليلاً للخليفة بالخير ، وانصرفتُ من ديوان الخليفة وهي من مستخدمي الديوان وموظفيه ، بعد أن دخلتُ إليه متهمَةً تستأهلُ القصاص والعقاب .

وتوجهتُ دليلاً إلى الخان يصحبها تابعٌ من قبل الخليفة حيث قام بتسليمها الخان والحمام ، كما أوصى الأربعين عبداً الذين يتوهمون بخدمة الحمام ، والطاهى الذى يتولى طهو طعامهم ، بطاعة دليلاً والعمل على راحتها .

وكانَ بالخان مكانٌ مريحٌ مُعدٌّ لسكنى من يتولى أمر الخان فذهبتُ دليلاً إلى ابنتها زينب ، وأخبرتها بما تمَّ ، ودعتها إلى الانتقال للسكنى بالخان ؛ فجمعتُ زينبُ حاجاتها ، وانتقلتُ مع أمها إلى الخان ، فسرَّها ما وجدته به من عُرفٍ فسيحةٍ طليقة الهواء ، وما وجدتُ من فراغٍ وقضاءٍ واتساعٍ تجاهَ بروج الحمام .

فقلتُ لأُمها فرحة :

حقاً يا أُمى ، لقد جئتُ لَنَا بشىء عظيم .

فقلتُ دليلاً :

ولكنْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَحْمَدُ الدَّنْفِ ، فَإِنَّهُ لَنْ يَسْكْتَ عَلَى تَعْرِيتِهِ
هُوَ وَرِجَالُهُ وَأَخْذُكَ لِمَلَابِسِهِمْ .

فَقَالَتْ زَيْنَبُ :

غَدًا تَرَيْنِ يَا أُمِّي مِنْ مَنْأٍ سَيَنْتَصِرُ عَلَى الْآخِرِ .
ثُمَّ قَامَتْ فَرَبَّتْ حَاجَاتِهِمَا بِالسَّكَنِ الْجَدِيدِ ، وَعَلَّقَتْ الْإِحْدَى
وَالْأُورَعِينَ بِذِلَّةٍ الْخَاصَّةِ بِأَحْمَدِ الدَّنْفِ وَرِجَالِهِ بِمَجْدِرَانِ حِجْرَةٍ فَسِيحَةٍ ،
فَغَطَّتْ جَوَانِبَهَا بِهَا .

وَاسْتَبَّ الْأَمْرُ لِلدَّلِيلَةِ وَابْتَنَاهَا ، وَنَالَتْ بِذَلِكَ مَا كَانَتْ تَتَمَنَّى ،
وَصَارَ لَهَا مَوْكَبٌ كُلَّ يَوْمٍ تَخْرُجُ فِيهِ رَاكِبَةً فَوْقَ ظَهْرِ بَغْلٍ وَيَسِيرُ
بِجَوَارِهَا بَعْضُ عَبِيدِهَا لِلتَّوَجُّهِ لِدِيْوَانِ الْخَلِيفَةِ ثُمَّ لِلْعُودَةِ مِنْهُ .

٧

بَيْنَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْدَاثُ تَجْرِي بِبَغْدَادَ ، كَانَ بِمَصْرَ شَاطِرٌ
اسْمُهُ عَلَى الزُّبُقِ الْمَصْرِيِّ ، وَكَانَ عَلَى الزُّبُقِ مِنْ تَلَامِيذِ أَحْمَدِ الدَّنْفِ ،
وَمِنْ أَنْدَادِهِ فِي الْمَخَادَعَةِ وَالْمَكْرِ وَالْحِيلَةِ ، فَلَمَّا هَاجَرَ أَحْمَدُ الدَّنْفِ إِلَى
بَغْدَادَ ، اتَّخَذَ الشَّاطِرُ عَلَى لِنَفْسِهِ أَتْبَاعًا يَتَّبِعُونَهُ وَيَأْتِمُرُونَ بِأَمْرِهِ .
وَاشْتَهَرَ الشَّاطِرُ عَلَى بِنَا كَانَ يَعْمَلُ مِنْ مَكَايِدَ وَأَلَاعِيْبَ وَمَقَالِبَ ،
كَمَا اشْتَهَرَ بِبِرَاعَتِهِ وَمَهَارَتِهِ وَسَعَةِ حِيلَتِهِ فِي الْإِفْلَاتِ مِنْ أَيْدِي الشَّرِطَةِ

ورجال الأمن ، وتدويخه للحكام الذين يرغبون في القبض عليه ،
فلُقبَ لذلك بالزئبق لسرعة هروبه وزَوَغانه ، وإفلاته من أيدي كل
من يريد الإمساك به ، ومن ثَمَّةَ فقد صارَ اسمه الذي يُعرفُ
به هوَ على الزئبق .

وذات يوم شعر على الزئبق بضيق في صدره وملالة لا عهدَ لهُ
بهما ، فخرجَ يتمشىَّ بطرقات المدينة ويتجول بأرجائها ، للتنفيس
عن كربه ، والترويح عن نفسه .

وساقتَه قدماهُ إلى إحدى الطرقات ، فالتقى فيها برجل سقاء
يحملُ قربةَ ماء على ظهره ، ويده كوبٌ يسقي الناس فيه . وهو
يسيرُ مُنادياً على مائه ، مُنشدّاً في ندائه بصوت مُنغم جميل .

وشعر على الزئبق بالعطش ، فتقدم من السقاء ، وطلبَ منه أن
يسقيه . فلأُ السقاءُ الكوبَ الذي بيده من الماء الذي يحمله في قربة ،
وناوله لعلّى ، فأخذَ على منه الكوبَ وخَصَّه ثم سكبَه على الأرض ،
ثم ناولَ الكوبَ للسقاء وقال له :
اسقنى .

فلأُ السقاءُ لعلّى الكوبَ مرةً ثانيةً ، وأعطاهُ له ، فأخذه وخَصَّه
كذلك ، ثم سكبَه على الأرض ، فدُهِش السقاءُ من ذلك وقال له :
أما تشربُ يا فتى ؟ !

قال على :

اسقني .

فألأ السقاءُ الكوبَ للمرةَ الثالثة ، ففعلَ به على ما فَعَلَ في المرتين السَّابقتين ، فقال له السقاءُ غاضباً :

يا هذا ؛ إن لم تكن تريدُ الشربَ فانصرف عني .

قال على :

بل اسقني .

فألأ السقاءُ الكوبَ وأعطاهُ لعلی ، فأخذه وشربه ، ثم أخرجَ من جيب ردايه ديناراً ذهبياً وأعطاهُ للسقاء ، فأخذه السقاء وقال :

قليلٌ ما جدتَ به ، وإني لأطمعُ منكَ بالمال الجزيل .

فدهش على مما سمع من قول السقاء وقال له :

ماذا تقولُ يا رجلُ ؟ ! أ أعطيكَ ديناراً في شربة ماء ، وتقولُ

لي مثلَ هذا القول ؟ !

قال السقاء :

ولكنك لم تشربَ إلا بعدَ أن سكبتَ على الأرض ثلاثة أكواب .

فقالَ على وقد أمسكَ بكتف السقاء يهزهُ في عُنْف :

أتريدُ أن تسخرَ ممّا فعلتُ يا رجلُ ؟ ! كم تُساوى الثلاثةُ

الأكواب من الماء التي سكبتُها على الأرض ؟ ! إنَّها لا تُساوى ثلاثة

درَاهم .

فقال السَّقَاءُ :

ولكن هُنَاكَ رَجُلًا فَعَلَ فَعْلَكَ وَكَانَ أَكْرَمَ مِنْكَ .
 فاشتدَّ غَضَبُ عَلِيٍّ ، واحتدَّ على الرَّجُلِ بقوله :
 أَعْطَيْكَ يَا رَجُلٌ دِينَارًا ذَهَبِيًّا ، وتقولُ لي : إِنَّ هُنَاكَ مَنْ هُوَ
 أَكْرَمُ مِنِّي ؟ ! قلْ مَنْ هُوَ ؟ ! وأينَ يَكُونُ ؟ !
 فقال السَّقَاءُ :

لِلذَلِكَ قِصَّةٌ ، وهِيَ أَنَّ أَيْ كَانَ سَقَاءً مَاتَ وَتَرَكَ مِهْنَتَهُ
 وَمَا ادَّخَرَهُ طَوْلَ حَيَاتِهِ مِنْ مَالٍ ، فَأَخَذَتْ أَنَا جَمِيعَ مَا خَلَّفَ لِي ،
 وَخَرَجْتُ إِلَى الْحِجَازِ لِلْحَجِّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَلَكِنِّي صَرْتُ أَصْرَفُ
 وَأَبْذَرُ حَتَّى أَنْفَقْتُ جَمِيعَ مَالِي ، وَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ مَا يُمْكِنُنِي مِنَ الْعُودَةِ
 إِلَى بِلَادِي ، وَكُنْتُ بِصَحْبَةِ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادَ ، فَصَحِبْتُهُمْ
 فِي عَوْدَتِهِمْ إِلَيْهَا .

فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى بَغْدَادَ سَأَلْتُ عَنْ شَيْخِ السَّقَائِينَ هُنَاكَ فِدَاوَنِي عَلَيْهِ ،
 فَقَصَدْتُ إِلَيْهِ ، وَأَخْبَرْتُهُ بِخَبْرِي ، وَبَيَّنْتُ لَهُ حَالِي ؛ فَأَخْلَى لِي مَكَانًا
 أَنَامُ فِيهِ عِنْدَهُ ، وَأَعْطَانِي قُرْبَةً وَكُوبًا لِأَزْوَالِ بَيْتِي .
 وَهَكَذَا صَرْتُ سَقَاءً بِبَغْدَادَ ، أَمْلَأُ الْقُرْبَةَ كُلَّ يَوْمٍ ، وَأُخْرِجُ
 بِهَا أَطُوفَ بِطُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ لِسَقَى النَّاسِ ، فَيُعْطُونَنِي جَزَاءَ ذَلِكَ مَا
 تَجُودُ بِهِ نَفْسُهُمْ .

وَبَيْنَمَا أَنَا أُسِيرُ بِالطَّرِيقِ ذَاتَ يَوْمٍ كَعَادَتِي أَبْصَرْتُ بَرَكَبَ عَلَى رَأْسِهِ

رجلٌ يرتدى بُرْنُسًا من تحته درعٌ من الفولاذ ، ومن فوق رأسه طاقيةٌ من اللباد ، ومن ورائه يسيرُ جمعٌ من الرجال في مثل لباسه ، كلُّ رجلين معاً . فسألتُ :

مَنْ هذا الرجلُ ؟ ومن هم هؤلاء الرجال الذين يسرونَ خلفه ؟ !
فقليلٌ لى :

هَذَا أحمدُ الدنف ، عينه الخليفة مُقدماً لميمنة بغداد ،
وهؤلاء رجاله .

فأردتُ أن أتقدمَ من أحمد الدنف لأعرضَ عليه مائى ، ولكنه سبقَ هو فرأى ، فأشارَ إلىَّ وقال :

تعالِ إلىَّ يا سَقَاءُ ، واسقنى شربة ماء .

فبألتُ له الكوبَ ، فأخذه وخَضَّه ثم سكبَه على الأرض ، وقالَ :
املاهُ . فبألتُهُ ثانيةً وسكبَه على الأرض ، وقالَ :

اسقنى .

فتعجبتُ من أمره ، وبألتُ له الكوبَ للمرة الثالثة ، فخَضَّه وسكبَه كما فعلَ فى المرتين السابقتين ، وكما فعلتَ أنتَ الآن ،
فتملكنى لذلك الغضبُ ، وهممتُ أن أنصرفَ عنه ، ولكنه قالَ :
اسقنى .

فبألتُ له الكوبَ وفى عزمى أن أنصرفَ عنه إذا لم يشربْ ، ولكنه شربَ ؛ ثم سألنى :

يبدو أنك غريبٌ عن بغدادَ ، فمن أى البلاد أنتَ يا رجلُ ؟
فقلتُ له :
من مصرَ .
فقال :
حيّا اللهُ مصرَ وأهلها .
ثم سألتُني :
ولم أتيتَ إلى هنا ؟
فأخبرتهُ بقصتي ، فأعطاني خمسةَ دنانيرَ ذهبيةً ، وقالَ لأتباعه :
جُودوا على هذا الرجل بما تجودُ به نفوسكم .
فأعطاني كلُّ واحدٍ من رجاله ديناراً .
وصرتُ بعدَ ذلكَ أتُرددُ على أحمد الدنف ورجاله في قاعاتهم ،
فيتحفونني بمنحهم وعطاياهم .
وساقَ اللهُ لي الرزقَ من مهنتي ، فاجتمعَ لدىّ مبلغٌ لا بأسَ
به من المال ، فصَحَّ عزمي على العودة إلى مصرَ ، فذهبتُ إلى أحمد
الدنف في قاعته ، وأخبرتهُ بما اعتزمتُهُ ، فدمعتُ عيناهُ ، وأنشدَ
بیتين من الشعرَ فيهما حنينٌ إلى مصرَ وأهلها ، وفيهما سلامٌ ووداع
للمسافرين إليها ، ثم قالَ :
أريدُ أن أعطيك كتاباً توصلُهُ إلى صاحب لي في مصرَ ، فهل
أنتَ فاعلٌ ؟

فقلتُ له :

نعم ، أعطني إيَّاه ، وسم لي صاحبه ، فأسلمهُ إليه .
فكتبَ كتاباً وأعطاهُ لي وقال :

إذا وصلتَ إلى مصرَ فاسألُ عن عليّ الزُّبَيْقِ المصري ، وأعطه له .
فلما جئتُ إلى مصرَ سألتُ عن عليّ الزُّبَيْقِ فعرفَ اسمَه الجميعُ ،
ولكن لم يدلّني أحدٌ على مكانه .

فلما فعلتَ أنتَ الآنَ ما فعلَ أحمدُ الدَّنْفُ ببغدادَ تعجَّبتُ ،
وتذكَّرتُه ، وطمعتُ أن تكونَ عطيتُكَ لي كعطيتِهِ . فلماذا فعلتَ
كما فعلَ ؟ ! ثم جدتَ لي بما جدتَ ؟ !

فقالَ عليّ :

فعلتُ كما فعلَ لأنه أستاذي وأنا تلميذه ، وجدتُ بما جدتُ لأنَّ
هذه عادتنا مع الفقراء والمساكين .

فقالَ السَّقَّاءُ بفرح :

أنتَ من تلاميذ أحمدَ الدَّنْفِ وأتباعه ؟ إذن ، دلّني عليّ عليّ
الزُّبَيْقِ المصري لو كنتَ تعرفُه حتى أوصلَ إليه كتابَ معلّمه .

فقالَ عليّ الزُّبَيْقِ وهو يَضْحَك :

طِبْ نَفْساً ، وقرّ عيناً ؛ فأنا عليّ الزُّبَيْقِ المصري .

فقالَ السَّقَّاءُ :

حقاً . . ! لقد خَمَّنتُ ذلكَ وحدّثتني به نفسي .

ثم أخرج من بين طيات ثيابه كتاباً مختوماً ، وأعطاهُ لعلّي ،
 فأخذه هذا وفضّه وقرأه ، فوجدهُ بخط أستاذه أحمد الدنف ،
 وفيه يعرفه ما وصلَ إليه من منزلة طيبة لدى الخليفة ، ويدعوهُ إلى
 اللحاق به ببغداد ، عسى الله أن يهيئَ له مركزاً طيباً فيها .
 فقبلَ على الكتاب ، ورفعهُ إلى رأسه احتراماً له ولكتابه . ثم
 أخرج من كيسه بضعة دنانير جادَ بها على السقاء ، ثم شكره ،
 وودَّعه وانصرف .

وسارَ على إلى قاعته التي يجتمعُ فيها بأعوانه فوجدَهُم مجتمعين
 في انتظاره .

فقال لهم :

لقد عَزَمْتُ على السَّفرِ إلى بغداد الآن .

فقالوا له :

وماذا تفعلُ بدونك ؟ ! وكيف تتركُنَا ونحنُ لا نملكُ شيئاً
 نفقاتُ به ، ونعيشُ عليه ، فليس في مخزننا زاد ، ولا في أكياسنا
 مال ؟ !

فقال علي :

سأرسلُ إليكم ما يكفِيكم إن شاء الله .

وعلى هذا شرعَ عليُّ الزَّيْبُ في إعداد نفسه للسَّفر ، فلبسَ
 تحتَ ملابسه درعاً من الزَّرد ، وتوشَّحَ بسيفه ، وأخذَ كذلك

مَشْبَكَةً مِنَ الزَّرْدِ وَضَعَهَا فِي جِرَابِهِ الَّذِي وَضَعَ فِيهِ زَادَهُ ؛ ثُمَّ وَدَعَ أَصْحَابَهُ وَخَرَجَ يَنْشُدُ الرُّكَّابَ الْمَسَافِرَةَ إِلَى الشَّامِ وَالْعِرَاقِ .
والتَّقَى عَلَى بَرَكَبٍ مِنَ التَّجَارِ وَالْمَسَافِرِينَ . وَكَانَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ الْمَسَافِرِينَ إِلَى بَغْدَادَ لِلتَّجَارَةِ ، وَبَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ الَّذِينَ كَانُوا بِمِصْرَ لِهَذَا الْغَرَضِ ، ثُمَّ هُمْ بِسَبِيلِ الْعُودَةِ إِلَى بِلَادِهِمْ .

وَعَرَضَ عَلَى عَلَيْهِمُ الصَّحْبَةَ فَقَبِلُوا . وَسَارُوا وَسَارَ عَلَى مَعَهُمْ ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَعَهُ بَضَائِعُ كَثِيرَةٌ ؛ وَأَحْمَالٌ مُتَعَدَّةٌ ، فَقَالَ لَهُ عَلَى :
لِمَ لَمْ تَصْحَبْ مَعَكَ مَنْ يُسَاعِدُكَ يَا سِيدِي . فَهَذِهِ أَحْمَالٌ كَثِيرَةٌ ، وَأَنْتَ وَحْدَكَ لَا تَسْتَطِيعُ الْإِشْرَافَ عَلَيْهَا فِي حِمْلِكَ وَتَرْحَالِكَ ؟
فَقَالَ التَّاجِرُ :

لَقَدْ اكْتَرَيْتُ غُلَامِينَ لِهَذَا الْغَرَضِ ، وَلَكِنَّهُمَا غَدَرَا بِي ، وَفَرَّآ مِنِّي ، رَغِمَ مَا حَبَبْتُهُمَا بِهِ مِنْ كَرَمٍ وَإِحْسَانٍ ، وَهَآنَذَا كَمَا تَرَانِي فِي شِدَّةِ الضِّيقِ وَالتَّعَبِ .
فَقَادَ لَهُ :

أَنَا أَسَاعِدُكَ ، فَلَا تَبْتَئِسْ ، وَلَا تَحْمِلْ هَمًّا .
وَلَا زِمَ عَلَى التَّاجِرِ الشَّيْخَ أَثْنَاءَ السَّفَرِ ، حَتَّى إِذَا مَا غَادَرُوا حَتَلَبَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ مَرُّوا بِمَشَارِفِ غَابَةِ كَثِيفَةٍ مُلْتَفَّةِ الْأَشْجَارِ ؛

وحينئذ سمعوا زئيراً عالياً، وجفت له نفوس التجار، وكادت تنخلع من الرعب والهلج قلوبهم . ذلك أنهم أدركوا أن صاحب هذا الزئير أسد كاسر، يفرض ضريبة على كل ركب أحس به يَجُوزُ بغابته، ولا يرجع عن أى قافلة يشعر أنها تمرُّ به حتَّى يحصلَ منها على طلبته . لذا كان كلُّ ركب ، وكلُّ قافلة تشعرُ أنَّ الأسد أحسنَّ بمرورها تعملُ قرعةً بين أفرادها، ومن طلعت عليه القرعةُ أخرجته من بينها، وتركته للأسد فريسةً سهلةً يفترسها، ويتلهى بها عن بقيّة القافلة .

وبذلك عملَ الركبُ الذى يصحبه على الزئيق ، وطلعت القرعةُ على التاجر الشيخ الذى عرضَ علىَّ عليه مساعدته . واستسلمَ التاجرُ الشيخُ للأمر ، وجعلَ يسلم لإخوانه التجارَ أحماله ويوصيهم بإيصالها لأولاده ، وعيناهُ تطفر منهُما دموعُ الألم والحسرة . وأحسَّ على الزئيق بما يجرى حوله ، ورأى صاحبه الشيخ وهو يُودعُ أصحابه ، ويبكى ويبكون فسألهم :

ما الخبرُ أيها الإخوان ؟ !

فأخبروه الخبرَ ، فقالَ :

أتخافون قطَّ الغابة ،، وتخرجون من بينكم رجلاً فاضلاً كهذا الرجل تُلقونه إليه ؟ !
قالَ التجارُ :

هذا ما جرت عليه القوافل التي تمرُّها هنا من قبل ، وما أخرجنا صاحبنا هذا إلاّ لأنّ القرعة التي عملناها فيما بيننا قد خرجت عليه من دوننا .

قال :

سأُكفيكم وأُكفي القوافل من بعدكم شرّ هذا الأسد .
قالوا :

وماذا أنتَ فاعل ؟ !

قال :

سأُقتلُ الأسدَ الآنَ أمامَ أعينكم .
فقال التاجرُ الشيخُ :

والله لو قتلتَه يا ولدي ليُكونَنَّ لكَ عندي ألفُ دينار .
وتحمّسَ التجارُ الآخرون فقالوا :
ولكَ كذلكَ في أموالنا ما يكفيك .

عندئذ خلعَ على الزئبق ملبسه الخارجيّة ، فظهرَ من تحتها درعُ الزرد الذي يلبسه ، وأمسكَ السيفَ بيمينه ، وشبكةَ الزرد بيّساره ، ثمّ تقدّمَ نحوَ الغابة التي كانتَ تضطربُ بزئير الأسد الجائع . ويتردد في جنباتها صوته المرعب الخفيف .
وبرزَ الأسدُ من بين الأشجار ، ووقفَ ينتظرُ ويرقبُ الفريسة التي تتقدّمُ نحوه .

وتقدم على قليلاً ثم وقف يستعدُّ لهجوم الأسد ، وعلى مبعدة
كان رجالُ القافلة واقفين يتطلعون إليه بعيونٍ مملّقة ، وأفواه فاغرة ،
وقلوب واجفة . وألسنة منعقدة .
وابتداً الأسدُ يتقدمُ نحوَ الصيد . . ! وابتداً المصيدُ يستعدُّ
لصيد صائده .

وهجم الأسدُ على على ، وضغطَ على على لولب بشبكة الزرد
الملتفة بعضها فوق بعض بيده ، فانفردت فجأةً ، فطوّح بها في
وجه الأسد ، فعاقته عن الهجوم عليه ، وصدته عن أن ينشب
أنياه وأظفاره فيه .

وارتفعت يمينُ على بالسيف ثم انقضت على مقاتل الأسد
تطعنه وتثخنه جراحاً ، قبل أن يستطيع سبعُ الغابة من مأزقه
فكاكاً أو خلاصاً .

وتعالى صياحُ التجار بالهتاف لعلّ ، وارتفعت أصواتهم بالدعاء
له ، والثناء عليه . ثم أسرعوا نحوه يُصافحونه ويشكرونه ،
وفي مقدمتهم التاجر الشيخ الذي أخذ يعانقه ويُقبّله وعيناه مغرورتان
بالدموع شكرًا وعرفانًا بما قدم إليه على من جميل .

واستمرَّ الركبُ بعد ذلك في سيره بعد أن نقدَ الشيخُ ألفاً
دينار كما وعدّه ، وكذلك أعطاهُ بقيةَ التجار ما وعدوه .
وعلى مرحلة من بغداد اعترضَ طريقُ الركب بدوى مُلثَّم

يَمْتَلِئُ فَرَسًا وَمِنْ وَرَائِهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْوَانِهِ يَشْهَرُونَ السُّيُوفَ . وَيَرْفَعُونَ الرَّمَاحَ .
وَصَاحَ الْبَدَوِيُّ الْفَارِسُ عَلَى رُكْبِ التِّجَارِ بِصَوْتِ جَهْوَرٍ يَقُولُ :
سَلَمُوا مَا بَأْيَدِيكُمْ مِنْ مَالٍ ، وَمَا بِأَحْمَالِكُمْ مِنْ مَتَاعٍ وَمَتَاجِرٍ ،
قَبْلَ أَنْ تَذْهَبَ نُفُوسُكُمْ ، وَتُطَاحَ رُءُوسُكُمْ .

وَسَرَى بَيْنَ رُكْبِ التِّجَارِ صَوْتُ وَاحِدٍ يَقُولُ :
ضَعْنَا ، وَضَاعَتْ أَمْوَالُنَا . . . !
وَتَسَاءَلَ عَلَى قَائِلًا :

مِنْ هَذَا الْبَدَوِيِّ ؟ ! وَمِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ ؟ !
قَالَ التَّاجِرُ :

هَذَا رَئِيسُ عَصَابَةٍ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ ، وَهَؤُلَاءِ أَتْبَاعُهُ وَأَعْوَانُهُ
مِنَ الْأَشْرَارِ .

قَالَ عَلَى :

سَأَكْفِيكُمْ شَرَّهُ وَشَرَّ أَعْوَانِهِ .

قَالَ التِّجَارُ فِي فَرَحٍ وَسُرُورٍ :

وَلَكَّ عَلَيْنَا مِثْلَ مَا أَعْطَيْنَاكَ فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ .

فَأَخْرَجَ عَلَى مِنْ جَرَابِهِ حِزَامًا تَدَلَّتْ مِنْهُ جِلَاجِلُ وَقَوَاقِعُ

وَأَجْرَاسٍ كَثِيرَةٍ فَتَمَنَّنَطَّقَ بِهِ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ نَحْوَ الْبَدَوِيِّ قَاطِعِ الطَّرِيقِ .
فَصَاحَ عَلَيْهِ :

اُخْرُجْ إِلَى فَبَارِزَتِي وَنَازِلَتِي .

فتقدم قاطع الطريق من على ، وتقدم على كذلك منه . فلما صاراً بإزاء بعضهما بعضاً : هذا راجل وهذا على فرسه ، وقد شَهِرَ كُلُّ منهما سيفه ليضرب به غريمه . أتى على بحركات عنيفة من جسده جَلَجَلَتْ معها جلاجل الحزام الذى يتمنطق به وأجراسه بصوت مُدَوٍّ عَالٍ جعل فرس البدوى تجفل مرتعبة . فاختل معها توازنُ راكبها من فوقها ، وتنحرف يده بالسيف عن موضع الدفاع عن نفسه ، وبذلك أتاحت فرصة طيبة لعلى ليطعن فيها غريمه ، فسدد إليه ضربة أطاحت به من فوق ظهر الفرس . ثم أتبعها ضربة أخرى طاح معها رأسه .

وأسرع على فاعتلى ظهر الفرس قبل أن يهجم عليه أعوان البدوى انتقاماً لقتلهم ، ثم أسرع إليهم يضرب بسيفه يميناً وشمالاً ، فشتت شملهم ، وجعلهم يفرون من وجهه وجلين مذعورين . وعاد على إلى إخوانه فائزاً منتصراً ، وقد غرس بطرف سيفه رأس البدوى يلوح لهم به فى الهواء .

وهلل الرجال وكبروا ، والتفوا حول على يعانقونه ويقبلونه بفرح وسرور ، ثم أقبلوا عليه يسكافئون من أموالهم بسخاء جزاء ما قدم لهم ، فقد حفظ عليهم أرواحهم وأموالهم .

وأخيراً وصل أصحاب الركب إلى بغداد سالمين غانمين ، فسأل على التجار بقوله :

مَنْ مِنْكُمْ يَا أَصْحَابِي يَعْتَزِمُ أَنْ يَعُودَ إِلَى مِصْرَ وَشَيْكًا ؟
 فَأَجَابَ بَعْضُهُمْ :
 إِنَّا سَنَعُودُ إِلَى مِصْرَ بَعْدَ مَا نُسَلِّمُ مَا مَعَنَا مِنَ الْبَضَائِعِ إِلَى
 أَصْحَابِهَا .
 فَتَقَدَّمَ عَلَى مَنْ كَبِيرٌ فِيهِمْ وَأَعْطَاهُ مَا كَانَ قَدْ كَوَّفُ بِهِ عَلَى
 شِجَاعَتِهِ مِنْ مَالٍ . وَقَالَ لَهُ :
 إِذَا مَا وَصَلْتِ إِلَى مِصْرَ يَا سَيِّدِي . فَاسْأَلِ عَنْ قَاعَةِ عَلَى الزُّبَيْقِ
 الْمِصْرِيِّ ، وَأَعْطِ هَذَا الْمَالَ لِنَقِيبِ الْقَاعَةِ . وَقُلْ لَهُ : هَذَا الْمَالُ
 أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ رَئِيسُكُمْ فَتَقْسِمُوهُ فَمَا بَيْنَكُمْ بِالتَّسَاوَى .
 فَأَخَذَ التَّاجِرُ الْمَالَ مِنْ عَلَى وَقَالَ :
 حُبًّا وَكَرَامَةً . سَأَفْعَلُ مَا تُرِيدُ ، فَكُنْ مُطْمَئِنًّا الْقَلْبَ .
 فَتَرَى رِيحَ الْبَالِ .
 وَافْتَرَقَ التَّجَارُ كُلُّ فِي شَأْنِ أَحْمَالِهِ وَبَضَائِعِهِ . وَدَخَلَ عَلَى الزُّبَيْقِ
 بَغْدَادَ يَتَمَشَّى فِي شَوَارِعِهَا يَلْتَمِسُ مَنْ يَدُلُّهُ عَلَى مَقَامِ أَحْمَدَ الدَّنْفِ وَأَتْبَاعِهِ .

٨

لَمْ يَكُنْ عَلَى الزُّبَيْقِ قَدْ جَاءَ بَغْدَادَ قَبْلَ ذَلِكَ ، لَذَا سَارَ فِي
 شَوَارِعِهَا يَتَعَرَّفُ عَلَى مَسَالِكِهَا ، وَيَتَفَرِّجُ عَلَى أَسْوَاقِهَا وَدَكَكِيْنِهَا .

وفى أثناء تجواله هذا سأل بعض الناس عن المقدم أحمد الدنف ،
وأين يُقيم ؟ ! فلم يدلّه عليه أحدٌ . فبينما هو يسيرُ بإحدى الطرقات
التقى بجماعة من الصبية يلعبون ويمرحون ، فقال فى نفسه :

لا تأخذ أخبارهم ، إلا من صغارهم .

فعرّج على دكان يبيع بعض أنواع الحلوى ، فاشتري شيئاً منها ،
ثم نادى الأطفال . فلما أتوه فرّق عليهم ما اشترى ، ثم مال على
أحدهم وقد توسّم فيه النباهة ، فسأله :

ما اسمك يا بنى ؟

قال الصبي :

اسمى أحمد اللقبط .

فقال على :

هل سمعت عن شخص هنا اسمه المقدم أحمد الدنف ؟

قال الصبي :

نعم ، فهو مقدم الميمنة .

سأل على :

وهل تعرف أين يُقيم ؟

قال الصبي :

نعم ، فهو يُقيم مع رجاله فى إيوان به إحدى وأربعون قاعةً خصّصه
له الخليفة .

فقال على :

هل تستطيع أن تصحبني لتدلتني عليه .

ففكر الصبي لحظة ثم قال :

نعم ، وإنما أنا أسير أمامك وأنت تسير خلفي . فإذا ما مررت أنا أمام باب أحمد الدنف فساخذ حصاةً برجلي وألقيها على الباب ، فتعرف أنت أنه بابي .

فقال على :

أنت وما تريد .

وسار الصبي بطرقات بغداد يسير تارة ، ويجرى تارة ، ويلعب تارة ، وعلى الزئبق من خلفه حتى مرّ بباب أحمد الدنف ، فأخذ حصاةً من الطريق بقدمه ، وألقاها نحو الباب وكأنه يلعب ، ثم سار في طريقه . فأعجب على الزئبق بما فعل الصبي ، وقال لنفسه :

والله لئن صدق هذا الصبي فيما فعل وأشار . وهياً لي مقامٌ بهذه المدينة - لسوف أتأخذه صبيّاً من صبيانى !

ثم اتجه إلى الباب الذى أشار إليه أحمد اللقيط بالحصاة ، فقرعه قرعةً خاصةً كان يعرفها عنه أصحابه وأعوانه .

ومن الداخل صاح أحمد الدنف يقول لنقيب إيوانه :

يا نقيب الإيوان ، افتح الباب لعلى الزئبق المصرى !

وفتح الباب ، وتقابل التلميذ وأستاذه بالعناق ، ورحّب أتباعُ

أحمد الدنف بعلى ، وسارعوا إلى الحفاوة به والترحيب بمقدمه .
 وجلس على وأحمد الدنف وأتباعه يسمرون ، يُقصُّ هو أخبارَ
 مصر ، ويقصُّون هم أخبارَ بغدادَ . حتى انصرم باقي النهار .
 وانتصف الليل . ثم قام كلُّ إلى فراشه فنَامَ .

وفي الصُّبَّاح أعطى أحمدُ الدنف لعلی حُلَّةً مثلَ حِلَّتِهِ وقال له :
 هذه الحُلَّةُ حِجْزُهَا بِاسْمِكَ حينما صرفَ لى الخليفةُ ولأتباعي
 ما خُصَّصَ لَنَا من مَلَابِسَ ، فالبسها وامكثُ هُنَا بالإيوان حتَّى
 أتوجَّهَ أنا إلى ديوان الخليفة ، ويقومَ الرجالُ بما عليهم من أعمالٍ ،
 ثم نعودُ إليك .

فأخذَ على الحُلَّةَ ولبسها ، وشكرَ أحمدُ الدنف على ذلك ، ثم قال :
 ولكنى كنتُ أودُّ أن أخرجَ إلى المدينة أترىضُ في شوارعها ،
 وأتعرَّفُ مسالكها .

فقال أحمدُ الدنف :

ولكنَّكَ غريبٌ يا ولدى ، وأخافُ عليكَ من شُطَّارِ بغدادَ ،
 فهُمْ يَنْبُتُونَ بِهَا كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ فِي الْأَرْضِ .
 فقالَ على بدهشةَ .

ولكنَّ أعلَى تَخَافُ ياسيدى؟! وماذا سيكونُ حَالِي بِهذه المدينة
 إذن ، إذا لم أتعرفْ دروبها وأسواقها ، وأختبرَ طبائعَ أهلها وخصالهم؟!
 فقالَ أحمدُ الدنف :

أَجَلٌ ذَٰلِكَ حَتَّى أَعْمَلَ عَلَى تَقْرِيبِكَ مِنَ الْخَلِيفَةِ لِيَرْتَبَ لَكَ رَاتِبًا
وَيُخَصَّصَ لَكَ جَرَّاءَةً .

فَقَالَ عَلِيٌّ :

أَعَانَكَ اللَّهُ وَوَفَّقَكَ فِيمَا تَسْعَى إِلَيْهِ .

وَمَضَى عَلِيٌّ عَلَيَّ الزُّبَيْقَ بِإِيْوَانَ أَحْمَدَ الدَّنْفِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَفِي
الْيَوْمِ الرَّابِعِ حَدَّثَ عَلِيٌّ نَفْسَهُ بِقَوْلِهِ :

أَجِئْتُ أَنَا إِلَى بَغْدَادَ كَيْ أُسْجِنَ نَفْسِي بِهَذَا الْإِيْوَانِ ؟! وَاللَّهِ لَا قَوْمَ
الْيَوْمِ بِجَوْلَةٍ أَفْرَجُ فِيهَا عَنْ نَفْسِي ، وَأُشْرَحُ بِهَا صَدْرِي !

ثُمَّ مَا لَبِثْتُ عَلِيٌّ أَنْ نَفَذَ فِكْرَتَهُ هَذِهِ ، فَغَادَرَ إِيْوَانَ أَحْمَدَ الدَّنْفِ ،
وَسَارَ يَجُوبُ شَوَارِعَ الْمَدِينَةِ وَيَتَجَوَّلُ بِأَرْجَائِهَا هُنَا وَهُنَا ، وَبَيْنَمَا هُوَ
كَذَلِكَ شَاهِدُ امْرَأَةٍ فَوْقَ رَأْسِهَا خُوْذَةٌ وَعَلَى كَتِفَيْهَا عِبَاءَةٌ تَعْتَلِي ظَهْرَ بَغْلَةٍ ،
وَتَسِيرُ بِهَا فِي الطَّرِيقِ ؛ فَعَجِبَ مِنْ أَمْرِهَا ، وَسَأَلَ رَجُلًا كَانَ يَمُرُّ بِجَانِبِهِ :

مَنْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ ؟ !

فَأَجَابَ الرَّجُلُ :

هِيَ دَلِيلَةٌ ، بَوَابَةُ خَانَ حَمَامِ الزَّاجِلِ الْخَاصِّ بِالْخَلِيفَةِ .

وَكَانَتْ دَلِيلَةٌ وَقَتْنَدُ عَائِدَةً مِنْ دِيْوَانِ الْخَلِيفَةِ إِلَى الْخَانَ ، فَوَقَعَتْ
أَنْظَارُهَا عَلَيَّ عَلَيَّ الزُّبَيْقِ وَهُوَ وَقِفٌ بِجَانِبِ الطَّرِيقِ يَنْظُرُ إِلَيْهَا ،
فَتَأَمَّلْتُهُ فَوَجَدْتُهُ يَرْتَدِي مَلَابِسَ كَمَلَابِسِ أَحْمَدَ الدَّنْفِ وَرَجَالِهِ ،
وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ ، وَرَأَتْ فِيهِ شَابًّا تَبْدُو عَلَيْهِ عِلَامَاتُ الْبَاسِ وَالْقُوَّةِ ،

وَقَرَأَتْ فِي عَيْنَيْهِ نَظْرَاتٍ صَارِمَةً تَلُوحُ فِيهَا مَخَايِلُ النَّبَاهَةِ وَالذِّكَاءِ .
فَأَحَسَّتْ دَلِيلَةً بِشَيْءٍ مِنَ الرَّهْبَةِ عِنْدَ رُؤَيْتِهَا هَذَا الشَّابَّ ، وَعَادَتْ
إِلَى ابْنَتِهَا بِالْخَانِ وَقَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهَا التَّفَكِيرُ بِشَأْنِ هَذَا الشَّابِّ .

وَلَا حَظَّ زَيْنَبُ مَا عَلَيْهِ أُمُّهَا ، فَعَرَفَتْ أَنَّهَا مَشْغُولَةٌ بِأَمْرِ
ذِي بَالٍ ، فَسَأَلَتْهَا :

مَا بَكَ يَا أُمَّاهُ ؟ !

قَالَتْ دَلِيلَةٌ :

لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ بِالطَّرِيقِ شَابًّا طَوِيلَ الْقَامَةِ ، مَتِينَ الْبُنْيَانِ ،
مَفْتُولَ الْعَصَلَاتِ ، يَلْبَسُ مِثْلَ مَلَابِسِ أَحْمَدِ الدَّنْفِ وَرَجَالِهِ ،
وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ لَاحَظْتُ أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى نَظْرَاتٍ مَتَفَحِّصَةٍ
غَرِيبَةٍ ، فَدَاخَلَنِي فِي أَمْرِهِ شَكٌّ ، وَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ أَحْمَدُ الدَّنْفِ
قَدْ أَتَى بِهِ لِيَنْتَقِمَ لَهُ مِنَّْا بَعْدَ أَنْ أَخَذَتْ مَلَابِسَهُ وَعَرَّيَتْ رَجَالَهُ .

فَقَالَتْ زَيْنَبُ :

لَا تَخْشَى شَيْئًا يَا أُمِّي ، فَوَاللَّهِ مَا يَقْدِرُ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ أَحَدٌ .

قَالَتْ دَلِيلَةٌ :

اِئْتَنِي يَا ابْنَتِي بِتَخْتِ الرَّمْلِ حَتَّى أَضْرِبَهُ ، وَأَنْظُرَ مَا فِيهِ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .
فَأَتَتْ زَيْنَبُ أُمُّهَا بِتَخْتِ الرَّمْلِ ، فَجَعَلَتْ تَخْطُطُ فِيهِ بِإَصْبَعِهَا ،
وَتَحْسِبُ وَتَقْرَأُ ؛ ثُمَّ قَالَتْ لِابْنَتِهَا :

لَقَدْ رَأَيْتُ فِي الرَّمْلِ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ مَقْرَبٌ مِنْ أَحْمَدِ الدَّنْفِ ،

وأن سعدة سيغلبُ سعدنا ، وأن نجمته سيعلُو نجمنا ؛ فإذا ترين في
هذا الأمر الجَلَل ؟ !
قالت زينبُ :

لا تحملِي همًّا لذلك ، وسَترين ما أنا فاعلةٌ معه . عرفيني في
أى ناحية من المدينة رأيت هذا الشاب ؟
فلما أخبرتُ دليلاً ابنتها عن الطريق الذى شاهدتُ فيه عليًّا
الزُّبُق ، نهضتُ هذه فارتدتُ أفخرَ ما عندها من ثياب ، وتحلَّتُ
بأثمن ما عندها من حلَى ، وتجمَلتُ ، وتعطَّرتُ ؛ ثم غادرتُ الحان .
وسارتُ زينبُ إلى النّاحية التى أخبرتها أمها أنّها قد شاهدتُ
الشابَّ بها . ثم راحت تخطر هنا وهناك حتى لمحتهُ يسيرُ بإحدى
الطرق ، فعرفته من شكله وملبسه اللذين وصفتهما لها أمها .
فسارتُ زينبُ حتى اقتربتُ من على الزُّبُق ، وزاحمته ،
وتصنَّعتُ الاصطدامَ به ، ثم صاحَتُ :
آه . . . لقد التوتُ قديمى . . !

فأمسكَ على الزُّبُق بيد زينب ليُعينها على السَّير . وهو يعتذر
عما سبَّبهُ لها من ألم .

فقال زينب :

لا عليك من هذا ، وإنما الذنبُ ذنبى ، لأنى كنتُ مسرعةً في
سيرى فلم أنتبه لك .

فقالَ عليّ مستفسراً :

وهلْ زالَ ما برجلِكَ من الألم ؟

قالتْ زينبُ :

ما أزالُ أشعرُ ببعضِ الألمِ في قدي ، وأكونُ شاكرةً

عاونتني على السيرِ حتّى أصلَ إلى داري .

فسرَّ عليّ من عرض الفتاة عليه مُصاحبتَها ، وسأله

وهو مُمسكٌ بيدها ليُعاونها على السيرِ وزينبُ تتصنَّعُ

إظهاراً لما بقدمها من ألم مزعوم .

وسألَ عليّ زينبُ :

هل تسكنين قريباً من هنا ؟

قالت :

نعم ، فنزلُ زوجي قريبٌ من هنا ، وأنا ما تعودتُ أن

بيتي أبداً ، ولكن اليومَ ضاقتُ نفسي فخرجتُ أروحُ عنها

فتصادمتُ بك ؛ فمن أنت يا سيدي ؟ وأين تقيم ؟

فقالَ عليّ :

أنا اسمي عليّ الزُّبقي المصري ، وأقيمُ بقاعة أحمد الدنف ، وقد

أنا أيضاً لأروحَ عن نفسي بالسيرِ في شوارع بغداد فالتقيتُ

وأنا ملزم الآنَ أن أوصلك إلى دارك سالمةً .

قالت :

وأنا ملزمة أن أدعوك إلى بيتي لأقدم لك ما يجب على المضيف نحو ضيفه .

وسارت زينب وهي تتكىء على ذراع على الزئبق حتى دخلت إلى حارة بها باب مغلق ، فوقفت ، وجعلت تبحث بين أثوابها ، وتفتش بين طيات ملابسها ، ثم قالت :
آه . . . لقد سقط مني المفتاح . . . والآن ماذا عساي أن أفعل . . ؟ !

ثم التفتت إلى على وقالت :
يا سيدى ؛ ساعدنى وافتح لى هذا الباب .
قال :

وكيف أفتح باباً بغير مفتاح ؟
قالت :

اكسر رتاجه وافتحه .
قال :

من فتح باباً بدون مفتاح كان مجرمًا وجب تأديبه .
قالت :

ولكن الباب بابى ، وأنا أطلب منك ذلك . فلا بأس عليك إن فعلت . أنا أفتحه .

وخلعت زينب إزارها ونقابها ، فأبدت بذلك جمالها ، وأظهرت

زينتها لعيني علي؛ ثم أقبلت على الباب تهزؤه بعنف وتُحاولُ فتحه .
ورأى علي منها ذلك فلم يسعه إلا أن يتقدم لمساعدتها في
فتح الباب . ولم يمض إلا القليل حتى كان الباب قد فُتح فدخلت
زينب ودعت علياً إلى الدُخول فقال :
وكيف أدخلُ في دار لا أعرفُ صاحبها . . . ؟ ! وكيف
تدعيني للدُخول وأنا غريبٌ عنك . . . ؟ !
قالت :

لأكرمك علي ما فعلت معي من معروف ، ولأقدم لك
ما علي من واجب الضيافة .
وحاول علي أن يعتذر وينصرف ، ولكن زينب أقسمت عليه
إلا أن يدخل وهي تقول :

يا سيدى اجبري خاطري . ولا تكسري نفسي .
فدخل علي الزبيبي ، فأجلسته بفناء المنزل ، ثم دخلت
إلى الدار فأحضرت سفرة بها بعض الطعام والشراب ، وجلست
معه يأكلان ويشربان . ثم قامت إلى البئر فلأت منها دلوًا ،
وأحضرتهُ إلى علي حيث أخذت تصبُّ له على يديه ليغسلهما ،
وبينما هي تصبُّ له الماء نظرت إلى أصبعها ثم صاحت بلهفة :
خاتمي . . . آه لقد سقط مني الخاتم في البئر . . . !
فسألها .



كيف تدعيني للدخول وأنا غريب عنك ؟ !

وكيف سَقَطَ منك ؟

قالت :

لأنَّهُ واسعٌ على إصْبَعِي ، فهو في الْحَقِيقَةِ ليسَ خَاتَمِي ، بل هو خَاتَمٌ من الْبَاقُوتِ رَهْنَهُ رَجُلٌ عِنْدَ زَوْجِي على خَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَأَخَذْتُهُ أَنَا وَلَبِسْتُهُ بَعْدَ أَنْ دَسَسْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إصْبَعِي قِطْعَةً مِنَ الشَّمْعِ لِيَضِيقَ ، فَلَمَّا ابْتَلَلْتُ يَدِي بِالماءِ سَقَطَ دُونَ أَنْ أَدْرِي . آه يَا سَبْدِي دَلَّتْني فِي الْبُئْرِ حَتَّى أَجُتَّ عَنْ الْخَاتَمِ فِي قَاعِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ زَوْجِي وَتَسُوءَ عَاقِبَتِي .

فقالَ علي :

وهَلْ يَصَحُّ أَنْ تَنْزِلِي أَنْتِ وَأَبْقِي أَنَا . . . ؟ ! إِنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ وَلَا يَلِيقُ !

ثمَ قامَ مِنْ فُورِهِ فَتَرَعَّ عَنْهُ مُلَابِسُهُ . وَاتَّجَهَ إِلَى الْبُئْرِ ، وَرَبَطَ نَفْسَهُ فِي الْحَبْلِ ، ثُمَّ قَالَ لَزَيْنَبَ :

أَمْسِكِي الْحَبْلَ وَدَلِّينِي فِي الْبُئْرِ .

ثمَ اعتَلَى حَافَةَ الْبُئْرِ وَأَدْلَى نَفْسَهُ فِيهَا ، وَأَمْسَكَتْ زَيْنَبُ الْحَبْلَ تَرْخِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَعَلَى يَهْطُ إِلَى قَاعِ الْبُئْرِ رُويداً وَرُويداً .

فَلَمَّا انْتَهَتْ زَيْنَبُ مِنْ إِدْلَاءِ الْحَبْلِ صَاحَتْ عَلَى عَلَى تَقُولُ :
فُكَّ نَفْسُكَ مِنَ الْحَبْلِ وَانْزِلِي إِلَى قَاعِ الْبُئْرِ لِلْبَحْثِ عَنِ الْخَاتَمِ .
وَكَانَ جِدَارُ الْبُئْرِ أَمْلَسَ حَتَّى سَطَنَحَ المَاءُ ، وَمِنْ تَحْتِ سَطَحِ المَاءِ

مُدْرَجٌ ذُو درجَاتٍ يَسْتَطِيعُ مَنْ يَنْزِلُ أَنْ يَضَعَ عَلَيْهَا أَقْدَامَهُ ، فَفَكَتَّ عَلَى نَفْسِهِ . وَأَخَذَ يَنْزِلُ عَلَيْهَا دَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ لِلْبَحْثِ عَنِ الْخَاتَمِ .
 أَمَّا زَيْنَبُ فَقَدْ جَذَبَتْ الْحَبْلَ ثُمَّ ذَهَبَتْ فَأَعَادَتْ سُفْرَةَ الطَّعَامِ إِلَى مَكَانِهَا مِنَ الدَّارِ ، وَانْتَزَرَتْ بِإِزَارِهَا وَحَزَمَتْ مَلَابِسَ عُلَى فِي حُزْمَةٍ حَمَلَتْهَا تَحْتَ ذِرَاعِهَا ، ثُمَّ غَادَرَتْ الدَّارَ عَائِدَةً إِلَى أُمِّهَا بِالْخَانَ .
 وَاسْتَقْبَلَتْ دَلِيلَةُ ابْنَتَهَا بِقَوْلِهَا :
 مَاذَا فَعَلْتِ يَا زَيْنَبُ ؟

فَضَحِكْتُ زَيْنَبُ وَأُلْقَتْ إِلَى أُمِّهَا بِمَلَابِسِ عُلَى الرَّبِيقِ وَقَالَتْ :
 لَقَدْ جَرَدْتُ لَكَ عَلَيَّ الرَّبِيقَ الْمَصْرِيَّ مِنْ مَلَابِسِهِ ، وَتَرَكْتُهُ فِي قَاعِ بَيْتِنَا مُسَاعِدَ صَاحِبِ الشَّرْطَةِ يَنْتَظِرُ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَنْ يُنْجِدُهُ .
 كَانَ مُسَاعِدَ صَاحِبِ الشَّرْطَةِ هَذَا رَجُلًا أَعَزَبَ . يَعِيشُ فِي دَارِهِ مَعَ خَادِمٍ لَهُ . يَخْرُجُ صَبَاحًا إِلَى دِيْوَانِ الشَّرْطَةِ مَعَ خَادِمِهِ .
 ثُمَّ يَعُودُ مَعَهُ إِلَى دَارِهِ إِذَا مَا انْتَهَى عَمَلُهُ . وَكَانَتْ زَيْنَبُ تَعْلَمُ عَنْ مُسَاعِدَ صَاحِبِ الشَّرْطَةِ أَمْرَهُ هَذَا ، لِذَا تَخَيَّرَتْ دَارَهُ لِمَقْعَدِهَا عَلَيْهَا لِيُفْعَلَ مَعَهُ مَا فَعَلْتُ .

وَحَانَ وَقْتُ عَوْدَةِ صَاحِبِ الدَّارِ إِلَى دَارِهِ ، فَعَادَ إِلَيْهَا مَعَ خَادِمِهِ ، وَمَا كَادَ يَقْتَرِبُ مِنَ الْبَابِ حَتَّى وَجَدَهُ مَفْتُوحًا . فَسَأَلَ خَادِمَهُ :
 أَلَمْ تُغْلِقِ الْبَابَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ صَبَاحًا ؟
 قَالَ الْخَادِمُ :

بلْ أَغْلَقْتُهُ يَا سَيِّدِي بِالْمِفْتَاحِ .
قالَ السَّيِّدُ :

ها هُوَ ذَا أَمَامَكَ مَفْتُوحٌ . . . !
ولاحَظَ الرَّجُلُ مَا بِالْبَابِ مِنْ كَسْرٍ فَصَاحَ :
لقد دَخَلَ بَيْتِي لَصْرٌ .

وَأَسْرَعَ الرَّجُلُ وَخَادِمُهُ بِالدُّخُولِ إِلَى الدَّارِ ، وَأَخَذَا يُفْتَشَانِ
هُنَا وَهُنَاكَ ، فَلَمْ يَجِدَا أَحَدًا وَوَجَدَا كُلَّ شَيْءٍ عَلَى حَالِهِ ،
فَتَعَجَّبَا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ ، وَأَخَذَا يَتَسَاءَلَانِ عَنْ سِرِّ هَذَا اللَّصْرِ الَّذِي
اقْتَحَمَ الْبَابَ ، ثُمَّ انْصَرَفَ دُونَ أَنْ يَسْرِقَ شَيْئًا .
وَلَمَّا أَعْيَاهُمَا التَّفَكِيرُ فِي الْأَمْرِ قَالَ الرَّجُلُ لَخَادِمِهِ :

مَا عَلَيْنَا . . . ائْتِنِي بِدَلْوِ مَاءٍ حَتَّى أَتَوَضَّأَ وَأَصْلِيَ ، ثُمَّ أَذْهَبُ أَنْتَ
لِإِحْضَارِ نَجَّارٍ يُصْلِحُ مَا أَصَابَ الْبَابَ مِنْ تَلَفٍ .

فَذَهَبَ الْخَادِمُ إِلَى الْبُئْرِ لِيَمْلَأَ لِسِيدهِ الْمَاءَ ، وَأَدْلَى الدَّلْوَ فِي الْبُئْرِ ،
ثُمَّ ابْتَدَأَ يَرْفَعُهُ ، فَأَحْسَنَ بِثَقَلِ شَدِيدٍ فِيهِ لَمْ يَعْهَدَهُ مِنْ قَبْلُ فَأُطْلِيَ
بِرَأْسِهِ عَلَتَةً هَذَا الثَّقَلِ ، فَوَجَدَ الدَّلْوَ وَقَدْ تَعَلَّقَ بِهِ شَيْخُ
رَجُلٍ . . . فَأَلْقَى بِالْخَبِيلِ مِنْ يَدِهِ مَذْعُورًا . وَجَرَى نَحْوَ سِيدهِ وَهُوَ
يَصِيحُ :

عَفْرِيَّتْ بِالْبُئْرِ . . . عَفْرِيَّتْ بِالْبُئْرِ . . .
فَاسْتَفْسَرَهُ سَيِّدُهُ عَنْ الْأَمْرِ . فَأَخْبَرَهُ بِمَا رَأَى .

فذهب الرجلُ معَ خادمه إلى البئر ليتعرَّفَ صحَّةَ ما يَقُولُ ،
 فسمعَ صوتًا ينادى من قاع البئر أن :
 أخرجوني . . . ! أنقذوني . . . ! أغِيثُونِي . . . !
 فقالَ الرَّجُلُ لخدَّامه :

والله ما أظُنُّ هذا إلَّا اللصَّ الذى اقتحمَ البابَ . شَعَرَ بِدُخُولِنَا
 فاخْتَبَأَ فى البئر !

وأخذَ الرَّجُلُ وُخادمه يُرْفَعَانِ حَبْلَ الدَّلْوِ حتى اسْتَطَاعَا أَنْ
 يَتَبَيَّنَا ما فيه ، فوجدَا رجلاً يجلسُ به وَيَتَشَبَّثُ بِحَبْلِهِ ، فسألَ
 صاحبُ الدار :

مَنْ أَنْتَ . . ؟ أإنسى أمْ جُنْى ؟ !
 قالَ عَلَى :

أنا رجلٌ "إنسى" ، فأخرجُونِي !

قالَ صَاحِبُ الدار :

ما أَنْتَ إلَّا اللصُّ الذى اقْتَحَمَ الدارَ .

ثم قالَ الرَّجُلُ لخدَّامه :

هَيَّا نَرْفَعُهُ ، ونَقْبِضْ عَلَيْهِ ، ونَسُوقْهُ إِلَى السَّجْنِ .

فقالَ عَلَى :

ما أنا بِلصٍّ ، وَلَكِنْ ارْفَعُونِي حَتَّى أَقْصَّ عَلَيْكُمْ خَبْرِي .

فرفَعَ صَاحِبُ الدار وُخادمه الدَّلْوَ حَتَّى أَخْرَجَاهُ . وكان

فيه على عاريًا إلا من سرّوأل قدّ التّصقّ بجسمه من البَلَل ، فقال له صاحب الدار :

مَنْ أَنْتَ ؟ اصدّقنى القَوْلَ ، وقصّ علىّ خبرك ، وإلاّ زَجَجْتُ بك فى السّجن .

فقصّ علىّ خبره من أوّله إلى آخره بين دهشة صاحب الدار وعجبه . فلمّا فرغ من قصّته ، قال صاحب الدار :

إنّ قصّتك هذه عجيبةٌ غريبةٌ لا يُصدّقها العقلُ ، فما غرضُ هذه المرأة من إلقائك فى البئر ؟ وما غايتها من أخذ ملابسك ؟ فقال علىّ :

لا أعلم لى إلاّ ما أخبرْتُكَ به ، وأنا بين يديك فافعل ما تشاء . فلم يسع صاحب الدار إلاّ أن يُعطى علىّ شيئًا من ملابسهِ ، لبسه وغادر الدار .

٩

وسار على حتّى وصل إلى إيوان أحمد الدنف الذى كان إذ ذاك مجتمعا مع رجاله الأربعين وحسن شومان وهم يتساءلون عن السّبب فى خروج على الزّئبق ويتكهّنون عن السر فى غيبته . . ودخل عليهم علىّ الزّئبق ، فما كادوا يرونّه بردائه الذى أعطاه له مساعد صاحب الشرطة حتّى سألوهُ بدهشة :

أَيْنَ كُنْتَ يَا عَلِيُّ ؟ ! وَأَيْنَ مَلَابِسُكَ ؟ !
فجلسَ علىَّ بينهم يَقْصُرُ عَلَيْهِمْ قِصَّتَهُ ، وما كانَ من أمره ،
فلَمَّا فرَغَ قالَ لَهُ أحمدُ الدنف :
أما قُلْتُ لَكَ لا تَخْرُجْ ، فهاهنا نساءٌ يَضْحَكُنَّ على الرجال ؟ !
وضَحِكَ على كتفِ الجملِ وقالَ لعلِّي الزَّئْبِقُ :
أَتَكُونُ يا عَلِيُّ رَئِيسَ شُطَّارِ مِصرَ ، وتَضْحَكُ عَلَيْكَ صَبِيَّةٌ ؟ !
فقالَ حَسَنُ شُومانَ : .
أَتَقُولُ ذَلِكَ يا عَلِيُّ كَتَفِ الجملِ . . . ؟ ! أما عَرَّتْكَ
هذه الصَّبِيَّةُ ، وعَرَّتْ رفاقَكَ ورَئِيسَكَ ؟ !
فتساءَلَ عَلِيُّ الزَّئْبِقُ :
كَيْفَ كانَ ذَلِكَ ؟
فَقَصَّ عَلَيْهِ حَسَنُ شُومانَ ما كانَ من أمرِ دليلة . وما كانَ
منَ أمرِ زَيْنَبَ ، ثُمَّ ما كانَ منَ أمره معها وكيفَ صارتَ أخيراً
بِوَابَةِ نَحْوانِ الحِمامِ الرَّاجِلِ .
فقالَ عَلِيُّ الزَّئْبِقُ :
ولكنَّ هذا عارٌ عَلَيْكُمْ . . ! كَيْفَ تَسْكُنُونَ علىَّ أَخَذَ
مَلابِسَكُمْ ؟ !
فقالَ حَسَنُ شُومانَ :
فها هيَ ذِي زَيْنَبُ قد أَخَذَتْ مَلابِسَكَ أَنْتَ الآخرَ ، فهاذا انْتَوَيْتَ

أنْ تَفْعَلْ ؟

فَقَالَ عَلِيٌّ :

ما دمتَ تعرفُها فساعدني حتَّى أَعْمَلَ معها حيلةً أَسْتَرِدَّ بها ملابسِي ومَلابِسَ رَئيسِي أحمدَ الدنف وملابسَ رجاله ، وبعدَ ذلك سأعرفُ كيفَ أَرْغُمُها على الزَّوْجِ مِنِّي .

فَقَالَ حَسَنُ شُومان :

ما دامَ الأمرُ كذلكَ ، فاعْمَلْ بما أَشيرُ به عَلَيتُكَ .

قالَ علي :

هأنذا عَلَيَّ استعدادٌ لَتَسْفِيذِ ما تُشيرُ به .

فَقَالَ حَسَنُ شُومان :

فَمُمْ ، ادخُلْ إلى إحدَى القاعاتِ واخْلَعْ ملابسَكَ .

فَنَهَضَ عَلِيٌّ لِيَعْمَلَ بما أَشارَ به حَسَنُ شُومان ؛ أما حَسَنُ شُومان فإنه أَحضرَ مادةً سَوْداءَ غَلَّاها في شَيْءٍ من الماءِ فَصَارَتْ مِثْلَ الزَّيْتِ الأَسْوَدِ ، ثُمَّ دَخَلَ إلى عَلَيِّ الزَّيْبِقِ فَطَلَّى وَجْهَهُ وَجَسَمَهُ بِهَا ، وَكَحَلَ عَيْنَيْهِ بِكَحْجَلٍ أَحْمَرَ . فَصَارَ عَلِيٌّ حَالِكَ السَّوَادِ لَامِعِ اللَّوْنِ مِثْلَ الْعَبْدِ الأَسْوَدِ .

وَأَتَى حَسَنُ شُومانُ لِعَلِيٍّ بِمَلابِسٍ مِثْلَ مَلابِسِ الطَّهَّاءِ وَالْخُدَمِ فَأَلْبَسَهُ إِيَّاهَا ثُمَّ قالَ لَهُ :

الآنَ قد صرْتَ شَبِيهاً بِطَبَّاخِ خانِ الحَمَّامِ الَّذِي تحرسُهُ دليلاً !..!

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الطَّبَّاحَ يُغَادِرُ الْخَانَ إِلَى دَارِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ بَعْدَ أَنْ يَقُومَ
بِمَا عَلَيْهِ مِنْ إِعْدَادِ مَائِدَةٍ دَلِيلَةً وَابْتِهَا ، وَعَشَاءَ الْأَرْبَعِينَ عَبْدًا ،
وَإِطْعَامِ كِلَابِ الْحِرَاسَةِ ، وَفِي الصَّبَاحِ يَذْهَبُ إِلَى السُّوقِ لِشُرَاءِ اللَّحْمِ
وَالْخَضِرِ اللَّازِمِينَ لَطَعَامِ الْيَوْمِ التَّالِي ، أَمَّا بَاقِي مَا يَلْزَمُ الْمُطْبَّخَ مِنْ
مَوَادِّ أُخْرَى . فَهِيَ مَخْزُونَةٌ بِكَرَارِ الْخَانِ وَمُطْبَخِهِ وَهُوَ يَحْمِلُ مِفَاتِيحَهُمَا .
وَالْمَطْلُوبُ مِنْكَ الْآنَ أَنْ تَعْتَرِضَ طَرِيقَ هَذَا الطَّبَّاحِ عِنْدَ مُغَادَرَتِهِ
الْخَانَ وَتَتَعَرَّفَ بِهِ ، ثُمَّ تَدْعُوهُ إِلَى طَعَامٍ مِنْ كِبَابٍ وَشَرَابٍ مِنَ الْبُوظَةِ
سَاعِدَهُمَا لَكَ ، فَإِذَا مَا شَرِبَ الْبُوظَةَ وَسَكَّرَ فَاسْأَلْهُ عَمَّا يَفْعَلُ بِالْخَانَ
وَعَمَّا يَطْهَرُ مِنْ طَعَامٍ وَعَنْ مِفَاتِيحِ الْمُطْبَّخِ وَالْكَرَارِ ، وَعَنْ كُلِّ مَا
يَلْزَمُكَ السُّؤَالُ عَنْهُ لِكَيْ تَتَحَلَّ شَخْصِيَّتَهُ ، وَنَذْهَبَ إِلَى الْخَانَ
بِدَلَالَةٍ عَنْهُ . فَإِذَا مَا وَقَفْتَ عَلَى كُلِّ مَا يَلْزَمُكَ فِي ذَلِكَ فَضَعْ لَهُ
الْبَنَجَ فِي شَرَابِ الْبُوظَةِ ، وَخُذْ مِنْهُ الْمِفَاتِيحَ وَالسَّلَّةَ الَّتِي يَشْتَرِي فِيهَا
الطَّعَامَ . وَالبَسْ مَلَابِسَهُ ، وَاذْهَبْ إِلَى السُّوقِ وَاشْتَرِ مَا وَصَفَهُ لَكَ ،
ثُمَّ تَوَجَّهْ إِلَى الْخَانَ وَاطْهَرِ الطَّعَامَ . وَأَعِدْ لِكُلِّ مَنْ بِالْخَانَ طَعَامَهُ ،
وَضَعْ لَهُمْ فِيهِ جَمِيعًا الْبَنَجَ . كُلِّ عَلَى قَدْرِ طَائِقَتِهِ ، فَإِذَا مَا تَخَدَّرَتْ
دَلِيلَةُ وَابْتِهَا وَالْكِلَابُ وَالْأَرْبَعُونَ عَبْدًا ، فَادْخُلِ أَنْتَ إِلَى مَسْكَنِ
دَلِيلَةٍ وَابْتِهَا زَيْنَبَ وَخُذْ مَلَابِسَكَ وَمَلَابِسَ رَبِّيسِكَ وَرِجَالَهُ ، وَانصَرَفْ
قَبْلَ أَنْ يَفِيقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَإِذَا كُنْتَ تَرِيدُ حَقًّا الزَّوْاجَ مِنْ زَيْنَبَ فَمَا
عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَحْضُرَ مَعَكَ الْحَمَامَ الزَّاجِلَ وَبَعْدَ ذَلِكَ نَنْظُرُ مَا يَكُونُ .

فوافقَ عَلِيَّ عَلِيَّ مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ حَسَنُ شُومَانٍ ، ثُمَّ سَارَ
وَلِيَّاهُ حَيْثُ أَرَاهُ حَسَنُ شُومَانٍ الْخَانَ ، ثُمَّ تَرَكَهُ وَانْصَرَفَ .
وَبَقِيَ عَلِيٌّ يَرْصُدُ الْخَانَ حَتَّى مَرَّ وَقْتُ مِنَ اللَّيْلِ ، وَإِذَا بِالطَّبَّاحِ
قَدْ خَرَجَ وَمَعَهُ سِلَّتُهُ الَّتِي يَضَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي يَشْتَرِيهِ كُلَّ
صَبَاحٍ مِنَ السُّوقِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ عَلِيٌّ يَعَانِقُهُ وَهُوَ يَقُولُ بِلَهْجَتِهِ
الْعَبِيدِ :

كَيْفَ حَالُكَ يَا ابْنَ الْعَمِّ ؟ لَقَدْ مَضَى عَلَيَّ وَقْتُ طَوِيلٍ لَمْ
أُرْكَ فِيهِ فِي الْبُوظَةِ الَّتِي تَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا .
فَقَالَ الطَّبَّاحُ مُعْتَذِرًا :
إِنَّا مُشْغُولٌ دَائِمًا بِمَا عَلَيَّ مِنْ خِدْمَةِ مَنْ بِالْخَانَ ، وَلَا أَجِدُ
وَقْتًا قَطُّ لِلذَّهَابِ إِلَى الْبُوظَةِ .
فَقَالَ عَلِيٌّ :

بِاللَّهِ عَلَيَّكَ إِلَّا جِئْتَ مَعِيَ الْآنَ لِنَسْمُرَ مَعًا ، حَيْثُ إِلَى
قَدْ أَعَدَدْتُ طَعَامًا مِنْ كِبَابٍ ، وَشَرَابًا مِنَ الْبُوظَةِ . . . فَمَا نَدِيمِي
الْلَّيْلَةَ إِلَّا أَنْتَ . .

ثُمَّ قَادَهُ إِلَى قَاعَةٍ مِنْ قَاعَاتِ أَحْمَدَ الدَّنْفِ ، كَانَ حَسَنُ شُومَانٍ
قَدْ أَعَدَّ لَهُ فِيهَا مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ مَعَهُ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ .
وَجَلَسَ عَلَى وَأَجْلَسَ قِبَالَهُ الطَّبَّاحُ ، وَأَخَذَ يُنَاولُهُ الْكِبَابَ ،
وَيَصُبُّ لَهُ الشَّرَابَ . حَتَّى لَعِبَتْ الْبُوظَةُ بِرَأْسِ الطَّاهِي ، فَخَفَّ

ثَبَاتُهُ ، وانطلقَ لسانُهُ بالكلام . .
 فَأَخَذَ عَلَى يَسْأَلُهُ عَمَّا يَوْذُ الْوُقُوفَ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَدْرِجُهُ
 إِلَى مَا يَرِيدُ مَعْرِفَتَهُ حَتَّى عَرَفَ مِنْهُ عَادَاتِ أَهْلِ الْخَانِ وَمَوَاعِيدِهِمْ
 فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَعَرَفَ مِنْهُ أَلْوَانَ الطَّعَامِ الَّتِي طَلَبُوهَا لِيَطْهَوْهَا
 لَهُمْ فِي الْيَوْمِ التَّالِي ، عِنْدَئِذٍ أَذَابَ عَلَى الطَّاهِي قُرْصًا مِنَ الْبَنَجِ فِي
 شَرَابِ الْبُوظَةِ الَّتِي يَقْدُمُهُ لَهُ ، فَمَا إِنْ شَرِبَهُ الرَّجُلُ حَتَّى مَالَ رَأْسُهُ
 عَلَى صَدْرِهِ ، ثُمَّ انْقَلَبَ عَلَى الْأَرْضِ ، فَخَفَّ إِلَيْهِ عَلَى فُخْلَعٍ عَنْهُ
 ثِيَابُهُ فَلَبِسَهَا ، وَأَخَذَ حَلْقَةَ الْمِفَاتِيحِ الَّتِي وَجَدَهَا مَعَهُ فَدَسَهَا فِي
 جَيْبِهِ ، وَانْتَظَرَ حَتَّى انْبَلَجَ نَوْرُ الصَّبَاحِ فَخَرَجَ إِلَى السُّوقِ لِيَشْتَرِيَ مَا
 كَانَ الطَّبَّاحُ عَازِمًا عَلَى شِرَائِهِ مِنَ الْحَاجَاتِ .
 وَبَعْدَ أَنْ فَرَّغَ عَلَى مَنْ مِهْمَتِهِ هَذِهِ . حَمَلَ مَا اشْتَرَاهُ
 فِي سَلَةِ الطَّاهِي ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى الْخَانِ .
 وَكَانَتْ دَلِيلُهُ إِذْ ذَاكَ تَجَلَّسُ بِمَدْخَلِ الْخَانِ ، فَمَا إِنْ رَأَتْ
 عَلَيْهِ وَهُوَ يَدْخُلُ بَزَى الطَّبَّاحِ حَتَّى تَشَكَّكَتْ فِيهِ وَرَأَاهَا أَمْرُهُ ،
 فَصَاحَتْ عَلَيْهِ :

إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ أَيُّهَا اللَّصُّ ؟ !
 فَالْتَفَتَ إِلَيْهَا عَلَى وَقَالَ لَهَا بَدَهْشَةً :
 أَتَخَاطِبِينِي أَنَا أَيُّهَا الْبَوَّابَةُ دَلِيلَةُ ؟
 قَالَتْ :

نعم ، فإنتَ بالعبد الطَّبَّاخُ الذى يطبخُ لنا .
فقالَ وَهُوَ يَتَصَنَّعُ الغَضَبَ :
وَمَنْ أَكُونُ إِذْنُ إِذَا لَمْ أَكُنْ الطَّبَّاخُ ؟ !
قالتُ :

على الزئبقِ المصرى ، جئتُ لتعملَ معى مَنسراً لتنتقمَ لنفسك
ولرئيسك . . .

ثمَّ صاحَتْ :
قُلْ لى : أينَ سَعَدُ الله الطباخ ؟ ! وماذا فعلتَ معه ؟ !
فقالَ لها على :
أنا سَعَدُ الله ، وما أنا بمصرى ، المصرى أبيضُ أو أسود . . ؟ !
أنا لَنْ أَمُكُثَ عندكم وَلَنْ أَطبخَ لكمْ بعدَ الآنَ .
وكانَ العبيدُ الأربعةُ قد اجتمعوا على صياحِ دليَّةٍ معَ
على ، فلمَّا سمعوه يهددُ بتركِ الخدمةِ ومُغادرةِ الخان ، التفتوا حوله
يستفسرونه عن أمره ، ويستوضحونه خبره ، وهم يقولون له :
ماذا بك يا ابنَ العمِّ ؟ وماذا يكدرُكَ ؟
فقالَتْ دليَّةُ :

ما هوَ بابنِ عمِّكمْ ، بلْ هوَ رَجُلٌ آخرُ قد صَبَغَ جلدهُ . . !
فقالوا :
بلْ هوَ ابنُ عمِّنا سَعَدُ الله الطَّبَّاخِ .

فَقَالَتْ :

سَأُرِيكُمْ مَنْ هُوَ .

ثُمَّ نَهَضَتْ فَأَتَتْ بدهان دهنَتْ به جلد ذراع على ، ثُمَّ
أَخَذَتْ تَحْكُهُ مُحَاوَلَةً إزالة اللون الأسود الذي به ؛ وَلَكِنْ ذِرَاعَ عَلَى
بَقِيَّ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَتَغَيَّرْ لَوْنُهُ . فَقَالَ الْعَبِيدُ لِدَلِيلَةٍ :
إِنَّهُ ابْنُ عَمِّنَا ، فَدَعِيهِ يَدْخُلُ لِيُطَهِّرَ لَنَا الطَّعَامَ .

فَقَالَتْ دَلِيلَةٌ :

إِنْ كَانَ ابْنُ عَمِّكُمْ فَسَلُوهُ كَيْفَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ يَطْبَخُ لَكُمْ
كُلَّ يَوْمٍ ؟ وَمَا الَّذِي طَلَبْتُمُوهُ مِنْهُ أَمْسَ لِيُطْبَخَ لَكُمْ الْيَوْمَ ؟
فَسَأَلُوهُ ، فَأَجَابَ :

أَطْبَخُ لَكُمْ خَمْسَةَ أَلْوَانٍ كُلَّ يَوْمٍ ، وَالْيَوْمَ زِدْتُمْ عَلَيْهَا
لَوْنَيْنِ ، هُمَا : مَا وَرْدِيَّة ، وَحَبَّ الرُّمَّانِ .

فَقَالُوا :

صَدَقْتَ ، ادْخُلْ فَمَا أَنْتَ إِلَّا ابْنُ عَمِّنَا .

فَقَالَتْ دَلِيلَةٌ :

إِذْنٌ ؛ ادْخُلُوا مَعَهُ ، فَإِنْ عَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَى الْمَطْبَخِ وَمَخَازِنِ
الطَّعَامِ يَحِقُّ لَكُمْ أَنْ تَرْكُوهُ ، وَإِلَّا فَاقْتُلُوهُ شَرًّا قَتَلَةً .

كَانَ لَدَى سَعْدِ اللَّهِ الطَّبَّاخُ قُطْرِبَاءَهُ عَلَى نَفَايَاتِ اللَّحْمِ الَّتِي
كَانَتْ تَتَجَمَعُ لَدَيْهِ بِالْمَطْبَخِ ، لِذَا كَانَ الْقُطْرُ كُلَّمَا رَأَاهُ مُقْبِلًا بَسَلَّتْهُ

يُسْرَعُ إِلَيْهِ فَيَتَلَقَّاهُ بِالْفَرَحِ وَالْمَوَاءِ ، ثُمَّ يَسِيرُ أَمَامَهُ إِلَى الْمَطْبَخِ يَنْتَظِرُ مَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِ مِنْ عَظْمٍ وَلَحْمٍ .

فَلَمَّا رَأَى الْقَطْءَ عَلِيًّا دَاخِلًا فِي مَلَابِسِ الطَّبَّاحِ ، يَحْمِلُ السَّلَّةَ تَتَبَعَتْ مِنْهَا رَائِحَةُ اللَّحْمِ - أَسْرَعَ إِلَيْهِ يَتَمَسَّحُ بِهِ ، ثُمَّ أَسْرَعَ يَجْرِي أَمَامَهُ إِلَى بَابِ الْمَطْبَخِ ، ثُمَّ يَنْتَظِرُهُ بَعْتَبَتِهِ . .

وَأَدْرَكَ عَلَى الْبَدِيهَةِ أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَطْبَخُ ، وَحَمِدَ فِي نَفْسِهِ لِلْقَطْءِ تَصَرُّفَهُ ، فَأَخْرَجَ حَلْقَةَ الْمَفَاتِيحِ مِنْ جَيْبِهِ لِيَفْتَحَ الْبَابَ ، وَهُنَا سَقَطَ فِي يَدِ عَلِيٍّ . . ! لَقَدْ نَسِيَ أَنْ يَعْرِفَ مَنْ سَعَدَ اللَّهُ الطَّبَّاحُ أَيْ مَنَاحَ هُوَ مَفْتَاحُ الْمَطْبَخِ ، وَأَيَّ مَفْتَاحٍ هُوَ مَفْتَاحُ الْكَرَّارِ . . !

وَنَظَرَ عَلَى إِلَى الْمَفَاتِيحِ يَسْتَلْهِمُهَا ، فَرَأَى مِنْ بَيْنِهَا مَفْتَاحًا قَدْ عُلِقَتْ بِهِ آثَارُ الدِّمِّ وَالرِّيشِ . فَأَدْرَكَ أَنَّ هَذَا الْمَفْتَاحَ مَا هُوَ إِلَّا مَفْتَاحُ الْمَطْبَخِ ، فَأَدْخَلَهُ فِي الْقِفْلِ ، وَأَدَارَهُ فَاَنْفَتَحَ الْبَابُ ، فَدَخَلَ فَوَضَعَ سَلَّةَ الْخَضَارِ وَاللَّحْمِ . ثُمَّ أَخَذَ الْمَفَاتِيحَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَوَجَدَ مِنْ بَيْنِهَا مَفْتَاحًا يَلْمَعُ مِنْ آثَارِ الدَّهْنِ وَالسَّمَنِ . .

فَأَدْرَكَ أَنَّ هَذَا هُوَ مَفْتَاحُ الْخَزَنِ . فَخَرَجَ فَجَرَى الْقَطْءُ أَمَامَهُ إِلَى بَابِ الْخَزَنِ . فَعَرَفَهُ . وَأَدَارَ فِيهِ الْمَفْتَاحَ فَفَتَحَهُ وَدَخَلَ .

فَقَالَ الْعَبِيدُ لِلدَّلِيلَةِ :

هَآ قَدْ سَارَ إِلَى الْمَطْبَخِ وَالْخَزَنِ . وَعَرَفَ مَفَاتِيحَ كُلِّ مِنْهُمَا

من° بين مجموعة المفاتيح .

فقال دليله° :

إنه° ما عرف المطبخ والمخزن إلا° من القط ، وعرف المفاتيح بالبدية ، إن هذا أمرٌ لا يجوزُ على° .

قال العبيد° :

دعيه يطبخ لنا الطعام ، فما نشك في أنه° ابن° عمنّا .
وانصرفت دليله° والعبيد° ، وشمّر على° ساعد الجد . فطها الطعام ، وأعدّ لكل من° دليله° وابنتها° والعبيد موائدهم° حسب الإرشادات التي أرشده° إليها الطباخ° ، وقد مزج بطعام الجميع البنج .
فما إن فرغوا من° طعامهم حتّى كان مفعول البنج قد تصاعد برؤوسهم ، وسرى في أجسامهم° ، فالتوا إلى الأرض ثمّ ما لبثوا أن° راحوا في سبات عميق .

وحمل على إلى كلاب الحراسة ، التي تطلق لحراسة أبراج الحمام نصيبها من اللحم ، وكان قد دهّنه° بالخدر أيضاً ، فما لبث الكلاب أن لحقت بأهل الحان وأدركتها غيبوبة° طويلة° .
وخلّا جوّ الحان لعلّى . . ! وتمّ التدبير كما رسمه له° حسن° شومان ، ولم يبقَ عليه إلا° أن يبحث عن الملابس التي غامر من° أجلها . .

وصعد على إلى الجناح الذي تسكنه° دليله° وابنتها° من الحان؛

وجاسَ خلالَ غُرْفِهِ وقاعاته ، حتى دخلَ إلى قاعةٍ وجَدَ جُدرانها يتدلىَ عليها مقدارٌ كبيرٌ من الثياب ، عَرَفَ فيها ملبسهُ وملابسَ رئيسه ورجاله .

ومآ هيَ إلاَّ بُرْهةٌ وجيزةٌ حتَّى كانتِ الملابسُ التي كانت ترفرفُ على الجدران قد حُزِمَتْ في حُزْم ، ويجوارها حمامُ الرسائل قد جُمِعَ في قفص استعداداً للنقل !
وحَمَلَ على هذا وذاك ، ثمَّ غادرَ الحانَ بعدَ أن علَّقَ في رقيةٍ دليلاً ورَقَةً كُتِبَ فيها :

مآ فَعَلَ هَذَا إلاَّ على الزُّبُقِ المِصرى .
ووضَعَ أمامَها إسْفنجَةً مُشْبَعَةً بِسائلٍ يُنبِهُ مَنْ خُدر بالبنج .

وسارَ على إلى إيوان أحمد الدنف . فما إنْ رآوهُ . ورأوا ما أتى به حتَّى قاموا إليه فرحينَ يُعانقونهُ ويُقبلونهُ ويهنّونهُ بالسلامة .

وأخذَ كُلُّ واحدٍ منهم ملبسهُ فلبَّسها .
أمّا حَسَنُ شومان فقد نهَضَ مِنْ فَوْره فأتى بلثافةٍ بها عَشْبٌ غَلَاهُ في الماء ، وغسَلَ به عَلياً غَسْلاً جيّداً . فعادَ جِلده إلى ما كانَ عليه من قَبْل ، وظهَرَ على حقيقته .
ودخلَ على إلى سَعْدِ الله الطَّبَّاخ : فألبسهُ ملبسهُ . وشمّمهُ

السَّائِلُ الْمُضَادَّ لِلْبَنَجِ ، فَأَيَّظَهُ مِنْ سُبَّاتِهِ وَأَعْطَاهُ سَلْتَهُ ، فَأَخَذَهَا
الطَّبَّاحُ وَغَادَرَ الْمَكَانَ مُتَوَجِّهًا إِلَى السُّوقِ لِشِرَاءِ مَا كَانَ بِصَدَدِ شِرَائِهِ
فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ !

أَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ سُكَّانِ الْخَانِ ، فَقَدْ قَبِضَ اللَّهُ لَهُمْ
رَجُلًا يَسْكُنُ بِجَوَارِ الْخَانِ ، أَتَى يَنْشُدُ دَلِيلَةَ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ ،
فَإِذَا بَابُ الْخَانِ مَفْتُوحٌ ، وَمَكَانُ دَلِيلَةَ خَالٍ مِنْهَا . فَدَخَلَ الرَّجُلُ
يُنَادِي دَلِيلَةَ لَعَلَّهَا تَرُدُّ نِدَاءَهُ ، أَوْ لَعَلَّ أَحَدًا مِنَ الْعَبِيدِ
يُجِيبُهُ ؛ فَلَمْ يَتَلَقَّ جَوَابًا مِنْ هَذِهِ وَلَا مِنْ أُولَئِكَ . فَعَجِبَ الرَّجُلُ
مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الْغَرِيبِ . . . فَمَا عَهِدَ أَنْ تَرَكَ دَلِيلَةَ بَابَ الْخَانِ
مَفْتُوحًا دُونَ حِرَاسَةٍ ، وَلَا أَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ إِلَى الْخَانِ دُونَ أَنْ
يَبْصُرَ بِهِ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِ الْخِدْمَةِ ، أَوْ كَلْبٌ مِنْ كِلَابِ الْحِرَاسَةِ .
وَلَمْ يَجِدِ الرَّجُلُ بَدَأًا مِنْ أَنْ يَدْخُلَ لِيَتَعَرَّفَ سِرَّ هَذَا الْأَمْرِ .
وَمَا كَادَ يَشْرَفُ عَلَى فَنَاءِ الْخَانِ حَتَّى وَجَدَ دَلِيلَةَ فِي صَدْرِهِ مُسْتَلْقِيَةً
عَلَى الْأَرْضِ ؛ فَنَادَاهَا ، فَلَمْ تُجِبْ النِّدَاءَ ، فَاقْتَرَبَ مِنْهَا ، فَوَجَدَ فِي
رَقَبَتِهَا الْوَرَقَةَ الَّتِي عَلَّقَهَا بِهَا عَلَى الزُّبَيْقِ ، وَأَمَامَهَا الْإِسْفَنْجَةُ
الْمَشْبُوعَةُ بِمُضَادِّ الْبَنَجِ ، وَبِجَانِبِهَا وَرَقَةٌ تُبَيِّنُ ذَلِكَ ؛ فَعَرَفَ أَنَّ دَلِيلَةَ
مُخْدَرَةٌ ، فَقَرَّبَ الْإِسْفَنْجَةَ مِنْ أَنْفِهَا ، فَعَطَسَتْ ، ثُمَّ ابْتَدَأَتْ
تُفِيقُ ، وَتَدَبُّ فِيهَا الْحَيَاةُ . . !
فَلَمَّا أَفَاقَتْ شَرَحَ لَهَا الرَّجُلُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَأَرَاهَا الْوَرَقَةَ

التي كانت في رقبتها ، وسألها عن صاحب الاسم المكتوب بها
فَقَالَتْ :

هُوَ اسمُ رجلٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مَكَائِدُ وَمَقَالِبُ ، وقد جاءنا في
هيئة طَبَاخِ الخانِ فَعَرَفْتُهُ ، ولكنَّ العَبِيدَ كَابَرُوا وَكَذَّبُونِي وَتَرَكَوهُ
لِيَطْبُخَ لَنَا الطَّعَامَ ، وَيَضَعَ لَنَا فِيهِ البَنَجَ .
وَهَبْتُ دَلِيلَةً قَائِمَةً وَهِيَ تَقُولُ :

هَيَّا بِنَا لِنَرَى مَا فَعَلَ بَابُنِّي ، وما فَعَلَ بِالْعَبِيدِ .
وَوَجَدْتُ دَلِيلَةً ابْنَتَهَا وَالْعَبِيدَ جَمِيعًا فِي سُبَاتٍ تَحْمِيقُ ، فَعَمَلْتُ
هِيَ وَالرَّجُلُ عَلَى إِيقَاضِهِمْ ، فَلَمَّا أَفَاقُوا قَالَ الْعَبِيدُ :
مَنْ فَعَلَ بِنَا هَذَا ؟
قَالَتْ :

فَعَلَ بِكُمْ هَذَا عَلَى الزَّئْبِقِ الْمَصْرِيِّ ، الَّذِي حَدَّثْتُكُمْ مِنْهُ
وَلَكِنَّا كُذِّبْتُمُونِي وَأَعْرَضْتُمْ عَنِّي كَلَامِي .
وَأَسْرَعْتُ زَيْنَبُ إِلَى حَيْثُ كَانَتْ تُعَلِّقُ مَلَابِسَ عَلَى الزَّئْبِقِ
وَأَحْمَدُ الدَّنْفُ وَرَجَالُهُ ، فَلَمْ تَجِدْ لِلْمَلَابِسِ أَثَرًا ، وَكَانَتِ الطَّامَّةُ
الْكُبْرَى عَلَى مَنْ بِالْخَانِ جَمِيعًا حِينَ لَمْ يَجِدُوا حِمَامَ الزَّاجِلِ الْخَاصِ
بِالْخَلِيفَةِ . .

وَفُجِعَتْ دَلِيلَةُ . . . وَفُجِعَتْ زَيْنَبُ . . . وَفُجِعَ مَنْ بِالْخَانِ
مِنَ الْعَبِيدِ . . !

وَفَكَّرَتْ دَلِيلَةً فِيمَا أَصَابَهَا عَلَى يَدِ عَلَى الزُّبُقِ ، ثُمَّ قَالَتْ
لِلْعَبِيدِ :

اكْتُمُوا مَا حَصَلَ ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَبْوَحُوا لِأَحَدٍ بِشَيْءٍ مِمَّا
جَرَى .

ثُمَّ نَهَضَتْ فَخَلَعَتْ عَنْهَا مَلَابِسَ الرِّجَالِ الَّتِي كَانَتْ تَرْتَدِيهَا ،
وَلَبَسَتْ مَلَابِسَ النِّسَاءِ الْعَادِيَةِ ، وَلَفَّتْ حَوْلَ رَقَبَتِهَا مَنَدِيلَ
الْأَمَانِ ، ثُمَّ غَادَرَتْ الْخَانَ مُتَوَجِّهَةً إِلَى إِيوَانِ أَحْمَدَ الدَّنْفِ .

وَقَرَعَتْ دَلِيلَةً بَابَ أَحْمَدَ الدَّنْفِ ، فَقَالَ لِرَجَالِهِ :

افْتَحُوا . . . مَا بِالْبَابِ إِلَّا دَلِيلَةٌ . . !

وَدَخَلَتْ دَلِيلَةً عَلَى الرِّجَالِ مُجْتَمِعِينَ ، فَقَالَ لَهَا أَحْمَدُ

الدَّنْفِ :

مَا جَاءَ بِكَ يَا عَجُوزَ النَّحْسِ ؟ !

قَالَتْ مُتَوَسِّلَةً :

يَا مُقَدِّمُ ، إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ نَعْمًا فَعَلْتُ ، وَنَعْمًا فَعَلْتُ ابْنَتِي
مَعَكَ ؛ وَلَكِنَّكَ أَدْخَلْتَ بَيْنَنَا رَجُلًا غَرِيبًا لَيْسَ مِنْ غُلَمَانِكَ
وَلَا مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ .

قَالَ أَحْمَدُ الدَّنْفِ :

بَلْ هُوَ مِنْ أَوَائِلِ غُلَمَانِي ، وَأُبْرِعَ رَجَالِي .

قَالَتْ :

إذن ، اعملْ مَعِي مَعْرُوفًا لِنِ أَنْسَاهُ لَكَ ، وَكُنْ وَاسِطَةً
بَيْنِي وَبَيْنَهُ كَيْ يَرُدَّ لِي الْحَمَامَ الزَّاجِلَ الَّذِي أَخَذَهُ مِنْ الْحَانِ .
قَالَ حَسَنُ شُومَانَ :

لَقَدْ ذَبَحَ عَلَى الْحَمَامِ وَطَهَاهُ !
فَقَالَتْ دَلِيلَةُ جَزَعَةً مُسْتَنْكَرَةً :
أَنَا لَا أَصَدِّقُ هَذَا الْقَوْلَ ، كَيْفَ تَذْبَحُونَ الْحَمَامَ الْمُدْرَبَ
الْخَاصَّ بِالْخَلِيفَةِ . . . ؟ !

قَالَ عَلِيٌّ :
لَقَدْ ذَبَحْتُهُ وَأَنَا لَا أَعْرِفُ أَنَّهُ حَمَامٌ الرِّسَائِلِ .

قَالَتْ :
بَلْ تَعْلَمُونَ جَمِيعًا أَنَّهُ حَمَامٌ الرِّسَائِلِ ، وَلَوْ لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ
لَمَا اهْتَمَمْتُمْ بِأَنْ تَأْخُذُوهُ لَكِي تُنْزِلُوا غَضَبَ الْخَلِيفَةِ عَلَيَّ .
اثْنُونِي بِالْحَمَامِ حَتَّى أَعِيدَهُ إِلَى مَكَانِهِ قَبْلَ أَنْ يَشْعُرَ بِمَا جَرَى
أَحَدٌ .

وَكَانَ عَلِيُّ الرِّبْقِ وَحَسَنُ شُومَانَ يَحْضُرَانِ مَجْلِسَ دَلِيلَةِ مَعَ
أَحْمَدَ الدَّنْفِ ، وَيَسْتَمْعَانِ لِكَلَامِهَا ، وَيَرِيَانِ تَذَلُّلَهَا وَخُضُوعَهَا .
فَقَالَ أَحْمَدُ الدَّنْفِ لِرَجَالِهِ :

اثْنُوها بِالْحَمَامِ حَتَّى تَرَاهُ .
فَنَهَضَ عَلِيُّ وَحَسَنُ شُومَانَ ، وَدَخَلَا إِلَى إِحْدَى الْقَاعَاتِ ،

ثمَّ عَادَا يَحْمِلَانِ وَعَاءً بِهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْحَمَامِ الْمَحْمَرِّ .
وَنَظَرْتُ دَلِيلَةً إِلَى الْحَمَامِ الْمُطَهَّوِّ ، فَاضْطَرَبْتُ شَدِيداً ، وَصَعَدَ
دَمُهَا فِي وَجْهَيْهَا ، وَزَاغَتْ عَيْنَاهَا وَارْتَعَشَتْ يَدَاهَا ؛ وَلَكِنَّهَا كَظَمَتْ
غَيْظَهَا ، وَتَقَدَّمَتْ مِنَ الْوَعَاءِ الَّذِي فِيهِ الْحَمَامُ ، وَانْتَزَعَتْ قِطْعَةً
لَحْمٍ مِنْ إِحْدَى الْحَمَامَاتِ ، وَوَضَعَتْهَا فِي فَمِهَا وَمَضَغَتْهَا ، ثُمَّ
قَالَتْ :

مَا هَذَا اللَّحْمُ بِلَحْمِ طَيْرِ الرِّسَائِلِ . . . فَإِنِّي أَعْلَفُهُ حَبَّ
الْمَسْكِ ، وَبِذَلِكَ يَتَصَيَّرُ لَحْمُهُ مُشْرَبًا بِطَعْمِ الْمَسْكِ .
فَضَحَكَ حَسَنُ شُومَانَ وَقَالَ :

إِنْ كُنْتُ تُرِيدِينَ اسْتِرْدَادَ حَمَامِ الرِّسَائِلِ ، فَكَلْنِ بِرُدِّهِ لَكَ
عَلَى إِلَّا بِشَرْطٍ .

قَالَتْ :

مَا هُوَ ؟

قَالَ :

هُوَ أَنْ تُزَوِّجِيهِ مِنْ ابْنَتِكَ زَيْنَبَ !

قَالَتْ :

وَلَكِنِّي لَا أَمْلِكُ أَمْرَهَا إِلَّا بِالْمَعْرُوفِ .

قَالَ :

اطْلُبِي مِنْهَا ذَلِكَ ، وَأَقْنَعِيهَا بِهِ .

قالت :

إن ابنتي لا يستهويها إلا الشجاعُ البارِعُ في عملِ المقالب ،
المأهرُ في حبك المكائد . فإن كان عليّ الزئبق يُريد حقاً
الزواج من ابنتي فليذهب لخطبتها من خالها زريق السّماك الذي
يجلسُ في دكانه بسوق السّمك ، ويُنادي : « يا رطل سمك بدرهمين » ،
وقد علقَ عليّ باب دكانه كيساً به من دنانير الذهب ألْفان . .
فقال أحمدُ الدّنف محتدّاً عليها في القول :

أتريدين شراً - يأتيها المرأةُ الخبيثةُ - بولدنا عليّ ، كيف
تُشيرينَ عليه بالذهاب إلى أخيك زريق السّماك ؟ !
فقال عليّ :

كما تُريدُ ، سأعطيها الحمام ، وسأذهبُ إلى أخيها زريق
السّماك .

ثم نهضَ فأحضَرَ لها قفصَ الحمام ، فأخذته . وانصرفتُ
وهي تكادُ تطيرُ من شدة الفرح .

وكانت زَيْنُبُ بالخان تنتظرُ عودةَ أمها بفارغ الصبر ، فما إن
رأتها مُقبلةً بقفصِ الحمام حتى هتفتَ بها :

بارك اللهُ فيك يا أمّاهُ ، ما رأيتُ مثلك شجاعةً بين الرجال ،
ولا مهارةً بين النساء ! !

ماذا فعلتَ معَ الزئبق حتى أخذت الحمام ؟ !

قالت :

إنَّه يودُّ الزَّوْجَ مِنْكَ يَا ابْنَتِي ، وَلَكِنِّي أَحْلَيْتُهُ عَلَى خَالَكَ
زُرَيْقَ السَّمَاءِ ، لِيُخْطِبَكَ مِنْهُ ؛ وَبِذَلِكَ نَكُونُ قَدْ سُقْنَاهُ إِلَى
مَوَارِدِ التَّلَفِ وَمَوَاطِنِ الْهَلَاكِ !

وَكَانَتْ زَيْنَبُ قَدْ أَحَبَّتْ فِي عَلَى شَجَاعَتَهُ وَحَسَنَ
حِيلَتِهِ ، وَأَعْجَبَتْهَا مِنْهُ شَهَامَتُهُ وَعَفَّتُهُ فَفَرَحَتْ بِخَيْرِ
عَزْمِهِ عَلَى خُطْبَتِهَا ، وَرَغَبَتْهُ فِي الزَّوْاجِ مِنْهَا ؛ وَلَكِنَّهَا
سُرَتْ لِإِحَالَتِهِ عَلَى خَالِهَا زُرَيْقِ السَّمَاءِ ، فَقَدْ عَزَمَتْ
عَلَى أَلَا تَكُونَ زَوْجَةً لَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَرَى مَا سَيَكُونُ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ خَالِهَا ، وَبَعْدَ أَنْ تَمْتَحِنَهُ امْتِحَانًا عَسِيرًا صَعْبًا يُثَبِّتُ
بِهِ مِبْلَغَ قُوَّتِهِ وَمَقْدَارَ احْتِمَالِهِ وَشَجَاعَتِهِ .

أَمَّا عَلَى فَقَدْ سَأَلَ أَحْمَدَ الدَّنْفَ وَرَجَالَهُ :

مَا شَأْنُ زُرَيْقٍ هَذَا ؟ ! وَمَنْ يَكُونُ ؟ !

قالوا :

لَقَدْ كَانَ رَئِيسَ فِتْيَانِ أَرْضِ الْعِرَاقِ قَاطِبَةً . . ! يَكَادُ أَنْ
يَنْقُبَ الْجَبَلَ ، وَيَتَنَاوَلَ النَّجْمَ ، وَيَسْرِقَ الْكُحْلَ مِنَ الْعَيْنِ .
وَلَكِنَّهُ تَابَ عَنْ أَفْعَالِهِ هَذِهِ ، وَفَتَحَ لَهُ دُكَّانًا يَقْلِي بِهِ السَّمَكُ
وَيَبِيعُهُ ؛ فَجَمَعَ مِنْ ذَلِكَ أَلْفِي دِينَارٍ . وَلَكِنَّ زُرَيْقًا لَمْ يَنْسَ حُبَّهُ
لِلْحِيلَةِ ، وَمِثْلَهُ إِلَى مَعَاكِسَةِ النَّاسِ ، فَوَضَعَ الْأَلْفِي الدِّينَارَ الَّتِي جَمَعَهَا

في كيس . وعلّقَ الكيسَ بباب دكانه بعدَ أن رَبطَ بالحِيطِ
الذي يُعلّقُهُ به جلاجل وأجراساً تُنبِهُهُ إلى من يريدُ أن يضعَ يده
عليه . وكلماً ففتحَ دكانه علقَ الكيسَ بالباب ، ونادى متحدياً :
أينَ أنتم يا شُطارَ مصر ، ويا فتيانَ الطرق ، ويا صَعاليك بغداد
ويا مهرةَ بلاد العجم . . . ! زُرِّيقُ السَّمَاءِ قد علّقَ كيساً
بباب الدكان ، فمن ادعى الشُّطَارَةَ ، وعهد في نفسه المهارة ،
واستطاع أن يأخذهُ بِحيلة فهو له . . ! وقد سولت للكثيرين من
النَّاس أنفسهم الاستيلاء على الكيس فلم يُقدروا ، واحتالوا على ذلك
بحيل كثيرة فلم يَستطيعوا ، بل كان نصيبُهم من زُرِّيق أن يرميهم
بأقراص من رصاص أعدّها لهذا الغرض ، فيعودوا إلى أهلهم وديارهم
بجروحهم وخزيهم . . وكذلك كفَّ النَّاسُ عَن السَّعْيِ وراءَ هذا
الطَّلَبِ العسير ، ونَفَضُوا أيديهم من الجري وراء صيد بعيد المنال .
فقالَ على :

سَوْفَ لَا يَهْدَى لِي بَال ، وَلَا يَسْتَقَرُّ لِي قَرَار ، حتَّى يكونَ
هَذَا الكيسُ في يدي . . . !
قالوا : إِنَّا نخافُ عَلَيْكَ يا على عاقبةَ هَذَا الأمر . ولا
سيِّماً أَنَّكَ تبغى خطبةَ زَيْنَبَ من خالها زُرِّيق .
قالَ : لَنْ أَخْطِبَهَا إِلَّا بعدَ أن يكونَ هَذَا الكيسُ حلالاً
لي ، وسيكونُ ما فيه بإذن الله مَهْراً لها . .

وعَلَى ذَٰلِكَ صَحَّ عَزْمُ عَلِيٍّ .
وما أَشْرَقَ صَبَاحُ الْيَوْمِ التَّالِي حَتَّى كَانَ بِسَبِيلِ الْإِسْتِعْدَادِ وَالتَّجَهُّزِ
لهذا الأَمْرِ .

فَطَلَبَ مِنْ أَحْمَدَ الدَّنْفِ وَرَجَّالِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِثِيَابِ امْرَأَةٍ ، فَأَنَوَّهُ
بِهَا ، فَلَبِسَهُ وَتَجَمَّلَ وَتَزَيَّنَ ، وَأَرْسَلَ عَلِيَّ صَدُغِيهِ وَكَتَفِيهِ جَدَائِلَ
شَعْرٍ ذَهَبِيٍّ ، ثُمَّ اثْتَزَرَ بِلِزَّارٍ ، وَانْتَقَبَ بِنِقَابٍ ، وَخَرَجَ إِلَى الطَّرِيقِ
فَالْتَقَى بِحِمَّارٍ يَعْزُضُ حِمَارَةً لِلرَّكُوبِ ، فَسَأَلَهُ بِصَوْتٍ فِيهِ طَرَاوَةُ أَصْوَاتِ
النِّسَاءِ ، وَرَقَّتْهَا :

هَلْ تَعْرِفُ النَّاحِيَةَ الَّتِي فِيهَا دُكَّانُ زُرَيْقِ السَّمَكَ ؟

قَالَ الْحِمَّارُ :

نَعَمْ يَا سَيِّدِي .

قَالَ :

أَوْصَلْنِي إِلَيْهِ ، فَإِنِّي امْرَأَةٌ حَامِلٌ ، وَأُلْقِي فِي الْمَشْيِ جَهْدًا وَمَشَقَّةً ،
وَقَدْ اشْتَأَقْتُ نَفْسِي إِلَى أَكْلِ السَّمَكَ : وَلَيْسَ عِنْدِي مَنْ أَرْسَلُهُ
لِشْرَائِهِ .

فَأَرْكَبَ الْحِمَّارُ عَلِيًّا فَوْقَ الْحِمَارِ ، وَسَارَ بِهِ حَتَّى قَارَبَ دُكَّانَ
زُرَيْقِ السَّمَكَ ، فَشَمَّ عَلَى رَائِحَةِ السَّمَكَ الْمُقْلَى ، فَقَالَ لِلْحِمَّارِ :

ما هذه الرائحة التي حركت الجنين ببطنى ؟
قال :

هى رائحة سمك زريق يا سيدتى .
قال على :

أسرع وئسى منه بقطعة سمك ساخنة حتى آكلها فى الحال
ليسكن الجنين .

فصدع الحمار بالأمر ، وقاد الحمار إلى الدكان مسرعاً ، ودخل
إلى زريق السمك ، فقال له :

أتنى قطعة سمك ساخنة لأن معى امرأة حاملاً اشتاقت نفسها
إلى أكل السمك . فدخل زريق إلى الدكان ليوقد النار ، ورفع على
عينه إلى باب الدكان ، فوجد الكيس المنشود معلقاً به ، فمد يده يريد
قطعة من الحبل الذى تعلق به ، فصلصت الأجراس المعلقة
بأعلاه ، فانتبه زريق إلى ما يراد بكيسه : فها هى إلا ومضة حتى
كان قرص الرصاص يمرق فى الفضاء فى طريقه إلى رأس على .
ولكن علباً كان على انتباه لهذا الأمر ، فتفاداه بحركة سريعة ،
ونزل عن ظهر الحمار ، وانصرف عائداً من حيث أتى ، وشتائم
زريق السمك تشيعه ، وسبابه يلاحقه .

وعاد على إلى إيوان أحمد الدنف خائباً ، ولكنه لم يئس ، ففى
اليوم التالى قال للرجال :

ابتوؤنى بثياب سائس .
فلما أتوه بها لبسها ، وأخذ وعاءً وخمسة دراهم ، وتوجه
إلى دكان زريق . وقال له :

أعطني بخمسة دراهم سمكاً ساخناً .
فدخل زريق ليوقد النار ، فمدّ على يده إلى الكيس بخفة ،
ولكنه ما كاد يمسّه حتى صلصلت الجلاجل ، وزنت الأجراس ،
وفى التوّ كان قرص الرصاص يمرق إلى رأسه ، ولكنّ عليّاً
كان يقظاً فتفاداه . ثم أسرع بالانصراف ، فوقع القرص في وعاء
به مرقّ ساخن موضوع على دكة بباب الدكان ، فتصاعد منه
رشاش أصاب قاضى المدينة الذى كان يمر حينئذ من أمام الدكان
في طريقه إلى أمر من أموره .

وغضب القاضى لما أصابه . وسخط على زريق ، واحتدّ عليه
فى القول ، واجتمع الناس يطيبون خاطر القاضى . وينجّون باللائمة
على زريق ، وهم يطلبون منه أن يعدل عن تعليقه كيسه
هذا بباب الدكان ممّا يجعله هدفاً للطامعين ، ومطمعاً للسارقين ،
وسبباً لإثارة المشكلات ، وجلب المشاكسات فوعدهم زريق
بذلك ، فانصرف القاضى .

ولكن زريقاً لم ينفذ وعده ، ولم ينزل الكيس من معلقه
بباب دكانه ، وبهذا ظلّ هدفاً لزيارة على الذى أتاها هذه المرة

فِي ثِيَابٍ حَاوٍ يَحْمِلُ جُرَابًا مَمْلُوءًا بِالثَّعَابِينَ ، وَوَقَفَ بَبَابَ زُرَيْقٍ يَعْرِضُ عَلَيْهِ ثَعَابِيْنَهُ الَّتِي نَفَضَهَا فَجَاءَهُ مِنْ جُرَابِهِ ، فَانزَلَتْ عَلَى بَابِ الدَّكَانِ ، وَرَاحَتْ تَرْحَفُ إِلَى دَاخِلِهِ ، وَتَنْسَابُ بَيْنَ جَنْبَاتِهِ هُنَا وَهُنَاكَ .

وَفَرَعَ زُرَيْقٌ مِنْ رُؤْيَا هَذِهِ الثَّعَابِينَ رَغْمَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ جُرْأَةٍ ، وَمَا كَانَ يَتَسَمُّ بِهِ مِنْ شَجَاعَةٍ ؛ فَفَرَّ إِلَى دَرِيئَةِ بَدَاخِلِ الدَّكَانِ لِيَحْتَمِيَ بِهَا ، وَيَخْتَبِئُ وَرَاءَهَا ؛ وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْفُرْصَةُ الَّتِي تَعْمَلُ عَلَى لِأَجْلِهَا ، فَجَمَعَ ثَعَابِيْنَهُ بِسُرْعَةٍ وَمَدَّ يَدَهُ يُرِيدُ قَطْعَ الْكَيْسِ مِنْ حَبْلِهِ الَّذِي عُلِقَ بِهِ بِسِلَاحٍ صَغِيرٍ كَانَ مَعَهُ ، وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّ زُرَيْقًا لَنْ يَفْطِنَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ إِلَيْهِ ، وَلَكِنْ خَابَ فِائِلُهُ ، فَقَدْ شَعَرَ زُرَيْقٌ بِهِ وَكَانَ مِنْهُ مَا فَعَلَهُ مَعَ عَلَى فِي الْمَرَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ وَكَانَ مِنْ عَلَى كَذَلِكَ مَا كَانَ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَأَفْلَتَ دُونَ أَنْ يُصِيبَهُ قَرْصُ الرَّصَاصِ الَّذِي رَمَاهُ بِهِ زُرَيْقٌ ، وَكَانَ أَنَّ أَصَابَ الْقَرْصُ أَحَدَ جُنُودِ الْخَلِيفَةِ وَكَانَ يَمُرُّ بِالطَّرِيقِ فِي هَذَا الْوَقْتِ . وَأَمْسَكَ الْجَنْدِيُّ بِتَلَابِيْبِ زُرَيْقٍ وَهُوَ يَصِيحُ وَيَصْخَبُ ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ كَعَادَتِهِمْ كُلَّمَا أَصَابَتْ أَقْرَاصُ زُرَيْقٍ وَاحِدًا مِنَ الْمَلَاةِ ، يُلُومُونَ زُرَيْقًا عَلَى تَعْلِيْقِهِ هَذَا الْكَيْسَ الَّذِي يُسَبِّبُ مَا يُسَبِّبُ مِنْ أَحْدَاثٍ وَحَوَادِثِ .

وَبَعْدَ أَخْذِ وَرْدٍ ، وَشَدِّ وَجْدٍ ، بَيْنَ الْجَنْدِيِّ وَزُرَيْقٍ ،

والنَّاسُ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا يَنْصُرُونَ الْجَنْدَى عَلَى زُرَيْقٍ - تَعَهَّدَ زُرَيْقُ
أَنْ يَرْفَعَ كَيْسَهُ عَنْ بَابِ الدَّكَانِ ، وَيَكُفَّ عَنْ مَعَاكِسَةِ النَّاسِ
وَمُشَاغَبَتِهِمْ بِهِ .

وَعَادَ عَلَى إِلَى إِيوَانَ أَحْمَدَ الدَّنْفِ يَقْصُصُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْحَرْ
الَّذِي سَمِعَ النَّاسَ يُرْثِدُونَهُ .
فَقَالَ لَهُ أَحْمَدُ الدَّنْفُ :

لَا عَلَيْكَ !! ! إِنْ كُنْتَ لَمْ تَنْجَحْ فِي أَخْذِ الْكَيْسِ فَقَدْ نَجَحْتَ
فِي أَنْ غَلَبْتَ زُرَيْقًا عَلَى أَمْرِهِ ، وَأَثَرْتَ عَلَيْهِ النَّاسَ وَجَعَلْتَهُمْ
يُرْغَمُونَهُ عَلَى رَفْعِ الْكَيْسِ مِنْ بَابِ الدَّكَانِ .
فَقَالَ عَلَى :

مَهْلًا !! ! مَهْلًا !! ! لَنْ أَتْرَكَ زُرَيْقًا ، وَإِنْ أَخَذَ كَيْسَهُ بَيْنَ
نُجُومِ السَّمَاءِ ، وَفِي جَوْفِ الْأَرْضِ . وَأَوْكَدُ لَكَ أَنِّي سَأَنْجَحُ فِي
إِحْضَارِ الْكَيْسِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ .
فَقَالَ حَسَنُ شُومَانَ وَهُوَ يَضْحَكُ :

سَأَيْتُ هُنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، فَإِنْ لَمْ تُحْضِرِ الْكَيْسَ فَلَنْ أَفْتَحَ
لَكَ الْبَابَ .

فَقَالَ عَلَى :
لَقَدْ قَبِلْتُ هَذَا الشَّرْطَ ، وَرَضِيْتُ بِهِذَا الْإِتْفَاقَ ، وَسَفْتَحُ
لِيَ الْبَابَ عَلَى مَصْرَاعِيهِ .

وخرَجَ عَلَى لِيَحُومَ حَوْلَ دُكَّانِ زُرَيْقٍ يَرِاقِبُ مَا يَجْرِي فِيهِ ،
 وَيَلْحَظُ مَا سَيَكُونُ مِنْ زُرَيْقٍ فِي أَمْرِ الْكَيْسِ .
 وَمَرَّ النَّهَارُ وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ . وَحَانَتْ سَاعَةٌ إِغْلَاقِ زُرَيْقٍ لِدُكَّانِهِ ،
 وَعَلَى يَرَبْصٍ لَهُ يَرِاقِبُ مَا يَفْعَلُ ، وَيَتَطَّلِعُ إِلَى حَرَكَاتِهِ وَسَكَاتِهِ .
 حَتَّى رَأَاهُ يُنْزِلُ الْكَيْسَ ، وَيَضَعُهُ فِي جَيْبٍ دَاخِلٍ مَلَابِسِهِ يَلِاصِقُ
 صَدْرَهُ ، ثُمَّ يُغْلِقُ دُكَّانَهُ مُنْصَرِّفًا إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَتَتَّبِعُهُ عَلَى دُونِ
 أَنْ يَشْعُرَ بِهِ . حَتَّى وَصَلَ زُرَيْقٌ إِلَى الْحَارَةِ الَّتِي بِهَا مَنْزِلُهُ ، فَإِذَا بِالْمَنْزِلِ
 الَّذِي يَجَاوِرُ مَنْزِلَ زُرَيْقٍ وَقَدْ أَقِيمَ بِهِ فَرَحٌ كَبِيرٌ . وَأُضِيَّتِ الْأَنْوَارُ
 دَاخِلَهُ وَخَارَجَهُ ، وَالنَّاسُ فِيهِ يَذْهَبُونَ وَيَجِيئُونَ ، وَيَدْخُلُونَ
 وَيَخْرُجُونَ : فَتَوَقَّفَ زُرَيْقٌ بِيَابِ الْفَرَحِ . وَهَمَّ بِالْدُخُولِ ،
 وَلَكِنَّهُ عَادَ يَحْدُثُ نَفْسَهُ قَائِلًا :

الْأَصُوبُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى دَارِي لِتَرْكِ كَيْسِ النُّقُودِ بِهَا ، ثُمَّ أَعُودَ
 لِأَتَفَرَّجَ عَلَى الْمَغْنِينَ وَالْمَغْنِيَّاتِ ، وَالرَّاقِصِينَ وَالرَّاقِصَاتِ ، وَأَنْوَاعِ
 الْأَلْعَابِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا النَّاسُ لِإِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَى الْمُتَفَرِّجِينَ ،
 وَلِإِدْفَاعِ النُّقُودِ لِإِكْرَامًا لِلْجِيرَانِ أَصْحَابِ الْفَرَحِ ، فَإِنَّ مِنْ حَقِّ الْجَارِ
 عَلَى الْجَارِ حَقٌّ مُشَارَكَتِهِ فِي أَفْرَاحِهِ .

وَانصَرَفَ زُرَيْقٌ إِلَى دَارِهِ ، أَمَا عَلَى فَقْدٍ وَجَدَ فِي هَذَا الْفَرَحِ
 الَّذِي يَمْنَزِلُ جَارَ زُرَيْقٍ أَحْسَنَ فُرْصَةٍ هَيَّأَتْهَا لَهُ الصُّدْفُ . فَاانْدَسَ
 بَيْنَ النَّاسِ الدَّاخِلِينَ إِلَى بَيْتِ الْفَرَحِ ، ثُمَّ صَعَدَ إِلَى سَطْحِ الدَّارِ ،

وَمِنْ ثَمَّةٍ انْتَقَلَ إِلَى مَنْزِلِ زُرَيْقٍ بَعْدَ أَنْ تَدَلَّى مِنْ فَوْقِ الْجِدَارِ إِلَيْهِ .

وَتَسَلَّلَ عَلَى إِلَى أَسْفَلِ الْبَيْتِ فَسَمِعَ زَوْجَةَ زُرَيْقٍ تَسْأَلُهُ :
مَا بِالْك يا زُرَيْقُ يَبْدُو عَلَيْكَ الْهَمُّ ، وَيَلُوحُ بِمَحْيَاكَ
الْكَدْرُ ؟ !

وَسَمِعَ زُرَيْقًا يُجِيبُهَا :
لَقَدْ رُزْتُ بِشَخْصٍ تَقُولُ أَخْتِي دَلِيلَةٌ إِنَّ اسْمَهُ عَلَى الزُّبَيْقِ
المِصْرِيِّ ، وَيَنْزِلُ بِأَيَّوانِ أَحْمَدِ الدَّنْفِ ، فَهُوَ لَا يَقْتَأُ يَأْتِي إِلَى كُلِّ يَوْمٍ
مُتَنَكِّرًا بِصُورَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنِ الصُّورَةِ الَّتِي سَبَقَتْهَا وَبُغَيْتُهُ أَخَذُ كَيْسَ
الدَّنَانِيرِ الَّذِي أَعْلَقَهُ بِبَابِ الدِّكَانِ ، فَأَقْدَفُهُ أَنَا بِقُرْصِ الرَّصَاصِ ،
فَيُفْلَتُ مِنْهُ بِمَهَارَةٍ : فَيُضِيبُ الْقُرْصُ أَحَدَ الْمَارِينَ بِالطَّرِيقِ ،
فَيَجْتَمِعُ عَلَى النَّاسِ يُلُومُونِي عَلَى تَعْلِيقِ الْكَيْسِ بِبَابِ الدِّكَانِ ،
وَيَطْلُبُونَ إِلَيَّ أَنْ أَرْفَعَهُ فَأُضْطَرُّرْتُ الْيَوْمَ إِلَى إِنْزَالِهِ وَالْحِجْيَاءِ
بِهِ مَعِيَ .

فَقَالَتِ الزَّوْجَةُ :

أَوْ هَذَا يُحْزِنُكَ وَيَغْمُكُ يا زُرَيْقُ ؟ ! أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ تُقِيمَ
حَفْلًا وَتَنْصِبَ فَرْحًا فِي خَتَانِ ابْنَتَا عَبْدِ اللَّهِ ، وَتَصْرِفَ مِنْ هَذِهِ
الدَّنَانِيرِ ؟ !

قَالَ زُرَيْقُ :

نَعَمْ ؛ قد وعدتك بذلك عند ما نَعَزْمُ عَلَى خِثَانِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
قَالَتْ :

إِذْنٌ ، هَاتِ الْكَيْسَ أَحْفَظْهُ لَكَ حَتَّى تَسْتَرِيحَ أَنْتَ قَلِيلًا ،
وَتَنَامَ بَعْضَ الْوَقْتِ ، وبذلك تنهضُ مطمئنًا هَادئًا فَتَتَوَجَّهَ إِلَى
فَرَحٍ جَارِنًا حَيْثُ تَشْرَحُ صَدْرَكَ وَتَدْفَعُ نُقُوطَكَ .
فَقَالَ زُرَيْقٌ لَزَوْجَتِهِ :

نَعَمْ الرَّأْيَ رَأَيْكَ !! هَاكَ الْكَيْسَ فَاحْفَظِيهِ !!
وَنَاولَهَا زُرَيْقُ الْكَيْسَ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى فِرَاشِهِ ، فَتَمَدَّدَ عَلَيْهِ وَنَامَ
كَمَا أَشَارَتْ عَلَيْهِ .

وبذلك تَهَيَّأتْ لَعَلَى فُرْصَةٍ طَيِّبَةٍ لِأَخِذِ الْكَيْسَ ، فَقَدْ رَاقِبَ
زَوْجَتَهُ زُرَيْقٌ بَعْدَ أَنْ نَامَ زُرَيْقٌ ، فَوَجَدَهَا قَدْ وَضَعَتْ كَيْسَ
النَّقُودِ فِي صُنْدُوقٍ ، ثُمَّ نَهَضَتْ فَرَقَدَتْ بِجَانِبِ ابْنَتِهَا . فَتَسَلَّلَ هُوَ
إِلَى حَيْثُ الصُّنْدُوقِ وَفَتَحَهُ ، وَأَخَذَ الْكَيْسَ ، وَأَخْفَاهُ فِي طَيَّاتِ
ثِيَابِهِ ، ثُمَّ صَعَدَ إِلَى سَطْحِ الدَّارِ لِيَتَسَلَّلَ مِنْهُ إِلَى بَيْتِ الْفَرَحِ لِيَعُودَ
مِنْهُ إِلَى حَيْثُ أَقَى .

وَانْدَسَ عَلَى بَيْنِ الْمَدْعُومِينَ لِلْفَرَحِ ، فَاسْتَرَعَى انْتِبَاهَهُ أَصْوَاتُ
الْمَغْنِينَ ، وَطَبَلُ الطَّبَّالِينَ ، وَعَزْفُ الْعَازِفِينَ ، فَوَقَفَ يَتَفَرَّجُ عَلَيْهِمْ ،
وَيَمْتَعُ طَرَفَهُ بِرُؤْيَيْهِمْ ، وَيُشْنَفُ آذَانَهُ بِسَمَاعِهِمْ .
أَمَّا زُرَيْقٌ فَإِنَّهُ مَا كَادَتْ عَيْنُهُ تُغْفُو بِالنَّوْمِ حَتَّى هَبَّ مَدْعُورًا

يُنَادِي زَوْجَتَهُ قَائِلًا لَهَا :

انْهَضِي يَا أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ ، وَاَنْظُرِي كَيْسَ النُّفُودِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ فِي نَوْمِي
كَأَنَّ غُرَابًا قَدْ خَطَفَنَهُ وَطَارَ !

فَنَهَضَتْ زَوْجَتُهُ لَتَرَى الْكَيْسَ وَهِيَ تَقُولُ لَهُ :

اهْدَأْ يَا زُرَيْقُ وَنَمْ ، مَا بِالْكَ الْيَوْمَ قَلَقًا ، مُتَوَتِّرِ الْأَعْصَابِ
هَكَذَا ! لَقَدْ حَفَظْتُ الْكَيْسَ فِي الصُّنْدُوقِ وَمَا مِنْ أَحَدٍ مَعَنَا . .
وَتَوَقَّعْتُ أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الْكَلَامِ فِجَاءَةً ، ثُمَّ صَرَخَتْ صَرْخَةً
كَادَ يَنْشَقُّ لَهَا صَدْرُهَا ؛ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ قَدْ فَتَحَتْ الصُّنْدُوقَ
فَلَمْ تَجِدْ بِهِ الْكَيْسَ الَّذِي وَضَعْتَهُ بِهِ مِنْذُ قَلِيلٍ !

وَأَسْرَعَ زُرَيْقُ إِلَى زَوْجَتِهِ لِيَرَى مَا حَلَّ بِهَا . فَإِذَا بِهَا تَبَحُّثُ عَنِ
الْكَيْسِ كَالْمَجْنُونَةِ ، وَتُقَلِّبُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي فِي الصُّنْدُوقِ فَلَا تَجِدُهُ ، ثُمَّ
سَمِعَ صَوْتَهَا تَوَلَّوْلُ وَتَنْدَبُ قَائِلَةً :

ضَاعَ الْكَيْسُ . . . ! ! سُرِقَ الْكَيْسُ . . . ! !

فَقَالَ زُرَيْقُ :

مَا سُرِقَهُ إِلَّا عَلَى الرَّثِيقِ ! !

فَقَالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ :

أَسْرِعْ وَرَاءَهُ وَاسْتَخْلَصْ مِنْهُ الْكَيْسَ ؛ وَلَا تَعُدْ إِلَّا بِهِ .

فَقَالَ زُرَيْقُ :

لَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ إِلَّا بِالْكَيْسِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَسْرَعَ زُرَيْقٌ إِلَى مُغَادِرَةِ دَارِهِ مُتَوَجِّهًا إِلَى دَارِ جَارِهِ وَهُوَ يَقُولُ
لِنَفْسِهِ :

مَا تَسْلُقَ عَلَى دَارِنَا إِلَّا مِنْ بَيْتِ الْفَرَحِ .
وَدَخَلَ زُرَيْقٌ إِلَى دَارِ جَارِهِ . وَانْدَسَّ فِي جَمْعِ النَّاسِ يَتَفَرَسُّ
فِي الْحَاضِرِينَ ، فَوَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى عَلِيٍّ وَهُوَ وَقَفٌ يَتَفَرَّجُ مَعَ
الْمُتَفَرِّجِينَ ، فَعَرَفَهُ مِنْ وَصْفِ أُخْتِهِ دَلِيلَةً لَهُ ، وَأَيَّقَنَ أَنَّهُ هُوَ
الَّذِي سَطَا عَلَى دَارِهِ بِسَبَبِ وُجُودِهِ فِي الْفَرَحِ ، وَأَخَذَ الْكَيْسَ .
أَسْرَعَ زُرَيْقٌ إِلَى مُغَادِرَةِ دَارِ جَارِهِ ، وَتَوَجَّهَ إِلَى إِيوَانِ أَحْمَدَ
الدَّنْفِ . وَطَافَ حَوْلَهُ حَتَّى وَجَدَ مَكَانًا فِيهِ سَهْلَ الْارْتِقَاءِ فَارْتَقَاهُ ،
وَمِنْ ثَمَّةٍ نَزَلَ إِلَى أَسْفَلِ الْإِيوَانِ ، فَوَجَدَ الْجَمِيعَ نِيَامًا بِقَاعَاتِهِمْ ،
فَسَارَ إِلَى بَابِ الدَّارِ ، وَكَمَنَ وَرَاءَهُ يُنْتَظَرُ عَوْدَةُ عَلِيٍّ .
وَمَا لَبِثَ عَلَى أَنَّ حَضَرَ وَقَرَعَ الْبَابَ قَرَعَتَهُ الْمَعْهُودَةَ . فَأَجَابَهُ
زُرَيْقٌ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ :

مَنْ بِالْبَابِ ؟

وَكَانَ عَلَى يَظُنَّ أَنَّ الَّذِي يَنْتَظَرُهُ وَرَاءَ الْبَابِ هُوَ حَسَنُ شُومَانَ
لِيرَى : أَأَتَى بِالْكَيْسِ أَمْ لَا كَمَا تَوَاعَدَا عَلَى ذَلِكَ ! ! وَلِذَلِكَ أَجَابَ :

أَنَا عَلَى الْمَصْرَى ، وَقَدْ أَحْضَرْتُ الْكَيْسَ مَعِيَ .

فَقَالَ زُرَيْقٌ :

أَحَقُّ مَا تَقُولُ ؟ إِنِّي لَا أَصَدِّقُ ذَلِكَ .

قالَ عَلى :

افتحْ يا حسن ، فهذا الكيسُ فى يدي .

قالَ زُرّيق :

لا أفتحُ إلّا بعدَ أنْ أراهُ وأمسكهُ بيدي ؛ أدخلهُ إلىّ من الطّاقة .

فقالَ عَلى :

لا بأسَ بذلك .

وكانَ بالبَابِ كُوةٌ صَغِيرَةٌ ، فأخرجَ عَلىّ الكيسَ من بين طيَّات ثيابه وأدخلهُ منها . فتَلَفَّاهُ زُرّيقُ من النّاحية الأخرى ، ثمَّ أسرعَ إلى أعلى الإيوان ليتدلىّ منهُ إلى الطريق من حيثُ تسلَّقَ فى أوّل الأمر .

وانتظرَ عَلىّ أنْ يُفتحَ البابَ ، ولكنَّ دونَ جدوى ، فظنَّ أنَّ حسنَ سُومان يُداعبه ، فأعاد قرعَ الباب ونادى :
افتح يا حسنَ سُومان ، وكفّاكَ دُعابة .
فلم يُجبه مجيبٌ . فتغيَّطَ عَلىّ . وقرعَ البابَ بشدةٍ نهتَ مَنْ بالإيوان من الرجال . فهبّوا جميعاً يقولون :
هذه طرقةُ عَلىّ الزُّبقي .

وأسرَعَ النّقيبُ إلى فتح الباب . فدخلَ عَلىّ الزُّبقي ، فما إنَّ رآه حسنُ سُومان حتّى بادره بقوله :

هل أحضرت الكيس يا علي ؟
 فنظر علي إلى حسن شومان نظرة عتاب وقال :
 كفالك مِزاحًا يا حسن شومان . . . ألم أعطك الكيس من
 الطّاقة ، ثم تتركني واقفًا بالباب ؟
 قال حسن شومان بدهشة :
 أي كيس ؟ !! وأي طاقة ؟ !! أنا لم أفق من نومي إلا في
 هذه اللحظة .

فقال علي بدهشة زادت على دهشة حسن شومان :
 أحقًا أنك لم تتلقف مني الكيس من كوة الباب ؟ !
 فأقسم حسن شومان لعلي أنه لم يتلقف الكيس ، ولم يستيقظ
 من نومه إلا في هذه اللحظة ؛ فقال علي :
 إذن لقد عملها علي زريق ، وكان هو الذي يكمن لي وراء
 الباب .

وأسرع علي بالخروج متوجهًا من جديد إلى دار الفرح بعد
 أن أخذ معه إسفنجة مشبعة بمحلول البنج وأخرى مضادة لها ،
 ومّا إن أהלّ عليّ علي بيت الفرح حتّى سمع مهرج المغنين وهو
 ينادى باسم زريق إعلانًا لما دفع من نقوط .
 فقال علي لنفسه :
 طابت لك يا علي الفرصة ، وتهيا لك الأمر .

وأسرعَ إلى دار زُرَيْق فوجدَ زوجته نائمةً بجانب طفلها عبد الله ،
فقرَّبَ من أنفها إسفنجة البنج لتظلَّ نائمةً تحت تأثيره ، ثم أخذَ
وشاحها ، وتلفَّعَ به ، وأتى إلى الطفل ففعلَ معهُ بإسفنجة البنج
مَا فَعَلَ بِأُمِّهِ ، ثُمَّ حَمَلَهُ ، وَبَحَثَ عَنْ شَيْءٍ يَضَعُهُ فِيهِ ،
فوجدَ سَلَّةَ بِهَا كَعُكٌ مِنْ كَعَكِ الْعِيدِ ، فوضَعَهَا بِجَانِبِهِ وَوَضَعَ
عبدَ الله فيها ، ثُمَّ جَلَسَ يَنْتَظِرُ عَوْدَةَ زُرَيْق .

ومَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ أَوْ بَعْضُ سَاعَةٍ حَتَّى أَقْبَلَ زُرَيْقُ إِلَى دَارِهِ
بعدَ أَنْ قَامَ بِمَا عَلَيْهِ مِنْ نَقُوطٍ جَارِهِ ، ثُمَّ قَرَعَ الْبَابَ .
فردَّ عَلَى بَصُوتٍ نَاعِمٍ مُثْلِدًا صَوْتَ زَوْجَتِهِ زُرَيْقُ :
أَ أَنْتَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ؟

أَجَابَ زُرَيْقُ :

نَعَمْ ، فَافْتَحِي .

قَالَ عَلَى :

لَقَدْ أَقْسَمْتُ مَا أَفْتَحُ لَكَ الْبَابَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَحْضُرَ لِي الْكَيْسُ
وَأُمْسِكُهُ بِيَدِي .

فَقَالَ زُرَيْقُ :

أَدُلِّي السَّلَّةَ وَأَنَا أَضَعُهُ لَكَ فِيهَا .

فَنَهَضَ عَلَى إِلَى النَّافِذَةِ فوجدَ بِجَوَارِهَا سَلَةً مَرْبُوطًا بِهَا حَبْلٌ كَانَتْ
زَوْجَةُ زُرَيْقُ تَسْتَخْدِمُهَا فِي أَخْذِ حَاجَاتِهَا فِيهَا مِنَ الْبَائِعِينَ ، فَأَدْلَاهَا

فوضع زُرَيْقٌ بها الكيس ، فرفعها على إليه ، وأخذ الكيس منها ،
ثم حمل سَلَّةَ الكعك وطنل زُرَيْقُ بها ، وغادر الدار بعد أن
شمَّ زوجةَ زُرَيْقِ الإسفنجة المشبعة بمحاول ضد البنج .

وظلَّ زُرَيْقٌ بالباب ينتظرُ أن تفتح له زوجته ، ولما لم تفعل
قرع الباب بشدة وغضب . فهبت زوجته من نومها قائلة :

أو قد حضرت يا أبا عبد الله ؟ ! ! أجبت معك بالكيس ؟ ! !
فصاح عليها زُرَيْقُ :

ما بالك يا امرأة ؟ ! ! ألم أضع لك الكيس في السَلَّة التي أدليتها ؟ !
قالت :

أنا ما أدليت سَلَّةً . ولا أخذتُ كيسًا . . !

فأدرك زُرَيْقُ ما حصل ، فقال لامرأته :

لقد غلبني الشَّاطِرُ على . وصنع ما صنعتُ معه . افتحني

حتى أرى ما حلَّ بالدار .

ففتحت زوجةُ زُرَيْقِ البابَ لزوجها ، ثمَّ أخذتا يتفقدان

الدار ، وحيث اكتشفا فقد ولدهما عبد الله فصرخا :

وأولده . . ! ! !

وصاحت أمُّ عبد الله وولوت . وأخذت تدقُّ صدرها

بيديها . وهي تقول لزوجها :

ما أخذ ولدي إلاَّ الرجل الذي يعملُ معك المقلب ،

ومَا هَذَا إِلَّا بِسَبَبِكَ وبَسَبَبِ تَعْلِيْقِكَ الْكَيْسِ بِبَابِ الدُّكَّانِ . .
هَيَّا بِنَا إِلَى الْوَزِيرِ فَمَا أَشْكُوهُ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا أَعْرِفُ وَلَدِي إِلَّا
مِنْهُ . . .

فَقَالَ لَهَا زُرِّيْقُ :

هَدْنِي رَوْعَكَ يَا امْرَأَةً ، وَخَفْنِي عَنَّاكَ ، فَلَنْ أَعُودَ لَكَ
إِلَّا بِهِ .

وَأَخَذَ زُرِّيْقُ مِنْ دِيْلًا كَبِيرًا أَيْضًا ، وَرَبَطَهُ فِي عُنُقِهِ
دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ يُطَلَّبُ السَّلَامَ وَالْأَمَانَ . ثُمَّ سَارَ مُتَوَجِّهًا إِلَى
إِيْوَانَ أَحْمَدَ الدَّنْفِ . وَقَرَعَ الْبَابَ .

فَقَالَ أَحْمَدُ الدَّنْفُ :

هَآ هُوَذَا زُرِّيْقُ قَدْ جَاءَ فِي طَلَبِ وَلَدِهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ عَلَيَّ .

وَفَتَحَ الْبَابَ فَدَخَلَ زُرِّيْقُ يَقُولُ :

يَا كَبِيرَ الْإِيْوَانِ ! إِنِّي جِئْتُ طَالِبًا وَسَاطِئِكَ بَيْتِي وَيُسْنَى
أَحَدَ صِبْيَانِكَ عَاسَى الزُّبَيْقِ الْمَصْرِي الَّذِي لَمْ يَكْتَفِ بِأَخْذِ كَيْسِ
دَنَانِيرِي ، فَاتَّبَعَهُ بِخَطْفٍ وَلَدِي .

فَقَالَ أَحْمَدُ الدَّنْفُ :

أَوْ لَمْ تَكُنْ تُعَلِّقُ الْكَيْسَ عَلَى بَابِ دُكَّانِكَ حَلَالًا لِمَنْ
يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْخُذَهُ ؟ ! فَمَا بِالْكَ إِذْنٌ لَمْ تَرْكُهُ لِعَلِي وَقَدْ
اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِ ؟ !

قال زريق :
لقد وهبت له الكيس ، فليأتني بولدي .
فقال أحمد الدنف لعلی :
هات الولد يا علی لأبيه ، وخذ الكيس حلالاً لك .
فقام علی وأحضر الطفل وسلمه لأبيه ، فقال أحمد الدنف
لزريق :
اطمأنتت علی ولدك ، وقرت عنتك ، وطابت نفسك
يا زريق ؟ !!
أجاب زريق :
نعم ، ما دمت قد أخذت ولدي .
قال أحمد الدنف :
وكيسك مردود إليك مهراً لزینب ابنة أختك دلیلة فإننا
خطبناها منك لعلی .
قال زريق :
وأنا قبلت إن كان علی یقدر علی بقیة مهرها ؛ فقد
أقسمت زینب ألا تتزوج إلا بمن يأتيها بحلة قمر بنت عذرة
اليهودی .
فقال علی :
سوف آتيها بها .

فانصرف زُرَيْقٌ وَمَعَهُ الْكَيْسُ وَالْوَلَدُ .
 أَمَّا أَحْمَدُ الدَّنْفُ وَحَسَنُ شُومَانٍ فَتَقَدَّ نَظَرًا إِلَى عَلِيٍّ
 مُسْتَنَكِرِينَ مَا قَالَ : وَمَا تَعَهَّدَ بِهِ . وَقَالَ لَهُ :
 أَحَسِبْتَ يَا عَلِيُّ أَنَّ عُدْرَةَ الْيَهُودِيِّ مِثْلُ زُرَيْقٍ أَوْ أَمْثَالِهِ مِمَّنْ
 تَقَابَلَتْ مَعَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْأَلْعَابِ وَحَبْلِكَ الْمَكَايِدِ ،
 وَتَدْبِيرِ الْمَقَالِبِ . . ؟

فَقَالَ عَلِيُّ مُتَسَائِلًا :
 وَمَنْ يَكُونُ عُدْرَةُ الْيَهُودِيِّ إِذَنْ ؟
 قَالَا :

هُوَ صَائِغٌ يَهُودِيٌّ مَّاكِرٌ خَبِيثٌ سَاحِرٌ ، يَسْتَخْدِمُ السَّحَرِ
 فِي أَعْمَالِهِ ، وَيُسَخِّرُ الْجِنَّ فِي أَفْعَالِهِ ، مِمَّا لَيْسَ لَكَ بِخَوَافِيهِ
 طَاقَةٌ ، وَلَا بِأَسْرَارِهِ مَعْرِفَةٌ .
 سَأَلَ عَلِيُّ :

وَأَيْنَ دَكَّانُ هَذَا الْيَهُودِيِّ ؟ وَأَيْنَ يَقِيمُ ؟ وَمَا هِيَ حُلَّةُ
 ابْنَتِهِ ؟
 قَالَا :

دَكَّانُهُ بَسُوقُ الصِّيَاغَةِ ، وَيُقِيمُ فِي قَصْرِ خَارِجِ الْمَدِينَةِ ،
 جُدْرَانُهُ حَجَرٌ مِنْ الذَّهَبِ وَحَجَرٌ مِنَ الْفِضَّةِ ، وَهَذَا الْقَصْرُ
 يَظْهَرُ لِلنَّاسِ مَا دَامَ هُوَ مُقِيمٌ فِيهِ ، فَإِذَا غَادَرَهُ اخْتَفَى عَنِ النَّاسِ ،

وذلك بما لقدرة صاحبه على السحر ، وتسخير الجان ، أمّا حلّة ابنته فهي حلّة يُقالُ إنّه قد أحضرها من أحد الكُنُوز ، وهذه الحلّة خيوطها من سلوك الذهب المرصّع بالدرّ والجوهر .
فقال على :

قسماً بالله لأسعين وراء هذه الحلّة حتّى أضفر بها ،
ولأجعلنها ثوباً لزَيْنب ترتديه يوم زفافها .

١١

وعلى هذا العزم غادر على الزئبق أحمد الدنف وعصّابته ،
وتوجّه إلى دكّان عُدرة الصائغ اليهودي ووقف يُراقبه عن بُعد ،
فراّه قابلاً في دكّانه . وأمامه ميزانٌ يزن فيه تارة ذهباً ،
وتارة فضّة : وأمامه مِواقِدُ يصهر فيها ما يودّ صهره من هذين
المعدنين ليحولهما إلى سبائك ، أو ليصنعهما حلّياً من أساور
وقلائد ودمالج .

وظلّ على في موقفه هذا من عُدرة اليهودي ، حتّى رآه
قد استعدّ للانصراف ، ووضع ذهبه وفضته في كيسين ،
وضعهما في خرّج علّقه فوق ظهره بغلّة كانت تقف بجوار
الدكّان ؛ ثمّ أغلّق الدكّان ، واعتلى ظهر البغلّة ، وانصرف ؛

فَتَبِعَهُ عَلَى دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ .

وسَارَ عَلَى وَرَاءَ عُنْدَرَةِ الصَّائِغِ حَتَّى رَأَاهُ قَدْ غَادَرَ الْمَدِينَةَ ،
وَتَوَغَّلَ فِي الصَّحَرَاءِ ، وَظَلَّ سَائِرًا بَيْنَ حَصْبَاءِ الصَّحَرَاءِ وَرَمَالِهَا ،
وَعَلَى عَلَى مَبْعَدَةٍ مِنْهُ ، وَعَيْنَاهُ لَا تُفَارِقَانِهِ ، حَتَّى رَأَاهُ قَدْ نَزَلَ
عَنْ ظَهْرِ الْبَغْلَةِ فِي مَكَانٍ قَفْرٍ لَيْسَ بِهِ نَأْمَةٌ تَدْبُ فِيهَا الْحَيَاةُ ،
ثُمَّ تَرَبَّعَ فَوْقَ الْأَرْضِ ، وَأَخْرَجَ شَيْئًا مِنْ جِرَابِهِ صَارَ يَعْزُمُ عَلَيْهِ
وَيَتَمَتُّ ، فَإِذَا بَعْلَى يَرَى قَصْرًا شَاحِجًا عَالِيًا قَدْ ظَهَرَ أَمَامَ
مَجْلِسِ الْيَهُودِيِّ ، لَهُ دَرَجٌ مِنْ مَرْمَرٍ وَرُخَامٍ ، قَامَ الْيَهُودِيُّ وَرَكِبَ
فَوْقَ ظَهْرِ الْبَغْلَةِ وَاعْتَلَاهُ .

وَلَمْ يَحْجِمْ عَلَى عَنْ أَنْ يَتَّبِعَ عُنْدَرَةَ إِلَى حَيْثُ صَعَدَ ،
فَارْتَقَى مِنْ خَلْفِهِ السَّلْمَ فِي حَرُصٍ وَحَذَرٍ ، فَإِذَا بِالْيَهُودِيِّ وَقَدْ نَزَلَ
ثَانِيَةً عَنْ ظَهْرِ الْبَغْلَةِ ، وَإِذَا الْبَغْلَةُ وَقَدْ اخْتَفَتْ فِي الْحَالِ !
وَعَجِبَ عَلَى مَنْ أَمَرَ هَذِهِ الْبَغْلَةَ الَّتِي اخْتَفَتْ وَهِيَ وَاقِفَةٌ
فِي مَكَانِهَا ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ انْشَقَّتْ فَابْتَلَعَتْهَا أَوْ خُسِفَتْ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ
عَادَ فَتَذَكَّرَ مَا قَالَهُ لَهُ أَصْحَابُهُ عَنْ سِحْرِ الْيَهُودِيِّ ، وَقُدْرَتِهِ
عَلَى تَسْخِيرِ الْجِنِّ ، وَمَا كَانَ شَأْنُ الْقَصْرِ الَّذِي أَقِيمَ مِنَ الْمَبَاءِ إِلَّا
أَعْجَزَ مَنْ أَمَرَ الْبَغْلَةَ الَّتِي اخْتَفَتْ وَامَّحَتْ فَجَاءَةً مِنْ أَمَامِ عَيْنَيْهِ .
وَرَكَّزَ عَلَى اهْتِمَامِهِ فِي الْإِخْتِفَاءِ ، وَفِي مُرَاقَبَةِ الْيَهُودِيِّ ، يَنْظُرُ
مَا يَفْعَلُ وَمَا يَأْتِي مِنْ أَعْمَالٍ ؛ فَرَأَاهُ قَدْ أَحْضَرَ قَصَبَةً مِنْ ذَهَبٍ ،

نصبها كالحامل . وأتى بصينية من ذهب ذات سلاسل ذهبية أيضاً
فعلّقها من السلاسل في القصة ، وأحضر حلّة من خيوط الذهب
المرصّع بمختلف الجواهر ، ووضعها في الصينية ، ثم سار إلى نوافذ
القصر جميعها ففتحها . وجلس بالقرب من الصينية التي علّقها
في القصة ووضع فيها الحلّة . وصاح بصوت جهّوري رنّ صده
في أرجاء القصر الخالي يقول :

يا شبّان مصر . . ! ويا فتیان العراق . . . !! ويا مهرة
العجم . . ! ! ويا مفخرة العرب . . ! ! من أتى منكم إلى ،
واستطاع أن يأخذ هذه الحلّة - فهي له . . ! ! من غلبت حيلته
حيلتي ، وفاق سحره سحري ، واستخلص الحلّة من يدي -
فهي له . . ! ! ها ها . . ها ها . . ! !

وارتجّ القصر من جديده بقهقهة عذرة اليهودي . وتردد في
أرجائه صدى أصوات هزئه وسخريته وقهقهته . .

وعجب على من غرابة أطوار هذا الرجل الذي ينادي على
الناس في مكان يعرف أنّه خال من كلّ إنسان وأنّه لن يسمع
بندائه أحد . ولن يجيبه مجيب . ولن يردّ عليه راد . . وما شكّ
على أنّ هذه الحلّة التي ينادي عليها عذرة ما هي إلا حلّة ابنته
قمر التي أتى هو ينشدها ويسعى للحصول عليها .
وانتظر على ما سيكون من اليهودي ، فرآه يُشير بيديه

إشارات غريبة ، ويتمم بأصوات عجيبة ؛ وإذا بمائدة من الطعام الشهي قد ظهرت أمامه فجأة . فجلس إليها يأكل حتى اكتفى .
وعاود اليهودي هذه الإشارات ، وتلك التمتات والمتمهمات ، فاخترقت مائدة الطعام ، وظهرت مكانها مائدة حافلة بأنواع الشراب ؛ وجلس اليهودي إليها يشرب ويشرب حتى ظن على أنه لا بد قد أسكره الشراب ، ولعبت برأسه الخمر ، فقال لنفسه :
هذه فرصتك يا على فلا تفلتها من يدك .

وأخرج من بين ثيابه قضيباً من الحديد ، واقترب من اليهودي بحرص وحذر . حتى صار منه على بُعد خطوات ، ورفع يده بالقضيب ليتهوى به على رأسه ، ليغيبه عن وعيه ، حتى يستطيع أن يأخذ الخلعة التي ينسدها ؛ ولكن يده ظلت معلقة في الهواء بالقضيب لا تقوى على الهبوط . . . ! ووصلت إلى أسماع على أصوات همهمة ودمدمة وتمتمة وزمجرة تصدر من اليهودي . فرفع يده الأخرى وأخذ قضيب الحديد من يده المرفوعة وهم أن ينقض به على رأس اليهودي ولكن يده الأخرى أيضاً لم تطاوعه . وظلت مرفوعة في الفضاء كأختها . . !

وبُهِتَ على لما جرى . . ! وعجب لما صارت إليه حالته ، وأيقن أنه سيقع في يد اليهودي فريسة سهلة إن لم يسارع بعمل يُباغت به اليهودي دفاعاً عن نفسه . فأراد أن ينقض عليه

وَيَقْدِفُهُ بِجِسْمِهِ كُلِّهِ ، وَيُدْوسُهُ وَيُرْكَلُهُ بِقَدَمَيْهِ ؛ وَرَفَعَ عَلَى قَدَمِهِ
 الْيُمْنَى لِيَخْطُوَ خَطْوَتَهُ الْأُولَى وَلَكِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ قَدَمُهُ النُّزُولَ إِلَى
 الْأَرْضِ ، وَتَعَلَّقَتْ هِيَ أَيْضًا فِي الْمَوَاءِ ، وَكَأَنَّهَا قَدْ شُدَّتْ وَعُلِّقَتْ
 عَلَيْهِ كَأَنَّهَا خُشِبَتْ
 وَالتَفَتَ الْيَهُودِيُّ إِلَى عَلِيٍّ مُقَهِّقَهَا بِصَوْتٍ دَوَّى لَهُ أَرْجَاءُ
 الْمَكَانِ .

وَقَامَ الْيَهُودِيُّ إِلَى تَحْتِ مِنَ الرَّمْلِ جَعَلَ يَنْقُشُ وَيَخْطُطُ
 فِيهِ بِإَصْبَعِهِ زَمَنًا ، ثُمَّ عَادَ إِلَى عَلِيٍّ الَّذِي كَانَ يَقِفُ عَلَى قَدَمِ
 وَاحِدَةٍ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ وَهُوَ يَهْمُهُمْ وَيُتِمُّهُمْ ، فَارْتَخَتْ ذِرَاعَا عَلِيٍّ
 إِلَى جَانِبَيْهِ ، وَنَزَلَتْ قَدَمُهُ إِلَى الْأَرْضِ ، وَعَادَ كَمَا كَانَ أَوَّلًا ، وَقَالَ
 لَهُ الْيَهُودِيُّ :

تَقْدِم وَأَخْبِرْنِي : مَنْ أَنْتَ ؟ وَمَا شَأْنُكَ ؟

فَقَالَ عَلِيٌّ :

أَنَا عَلِيٌّ الزَّنْبَقِيُّ الْمِصْرِيُّ مِنْ تَلَامِيذِ أَحْمَدَ الدَّنْفِ ، قَدْ خَطَبْتُ
 زَيْنَبَ بِنْتَ دَلِيلَةَ الْحَتَالَةِ وَاشْتَرَطْتُ عَلَى مَهْرًا لَهَا أَنْ أُجِثَّهَا
 بِحُلَّةِ ابْنَتِكَ قَمَرٍ .

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ :

لَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ يَا عَلِيٌّ فِي هَذَا السَّبِيلِ ، فَمَا اسْتَطَاعَ غَيْرُكَ
 مِنْ قَبْلِكَ الْحُصُولَ عَلَيْهَا رَغْمَ مَا أَتَوْا مِنْ حِيلٍ وَأَعْمَالٍ ، فَانْصَرَفَ

إلى حَال سبيلك قبلَ أنْ ينَالكَ غَضَبِي ، فلوْلا أني رأيتُ في تَخْتِ
الرَّمْلِ وأنا أضربُهُ أنْ سَعَدَكَ يَغْلِبُ سَعْدِي ، وأنَّ نَجْمَكَ
يَعْلُو نَجْمِي — لما أَبْقَيْتُ عَلَيْكَ سَاعَةً مِنَ الزَّمانِ .
وسُرَّ عَلَى لما قالَهُ اليَهُودِيُّ عَمَّا رَأَى في تَخْتِ الرَّمْلِ ، وانتَعِشْتَ
رُوحَهُ وَقَوَيْتَ لكونِهِ سَيَغْلِبُ اليَهُودِيَّ ، وَسَيَعْلُو عَلَيْهِ ؛
فقالَ لَهُ :

لا بُدَّ أنْ آخُذَ الحِلَّةَ ، ولنْ أنصَرِفَ بدونها .

فقالَ اليَهُودِيُّ :

ما دُمْتَ بهذا الغِنَادِ ، فما في وسعِي إلّا أنْ أُصِيرَكَ إلى ما صَيَّرْتُ
إليه غيرَكَ منْ قَبْلِ .

وتَنَاولَ اليَهُودِيُّ طَاسًا مَلأَهُ بالماءِ ، وصَارَ يَعْزِمُ ويَهْمَمُ
ويدمِدُمُ عليه ، ثمَّ رَشَهُ عَلَى عَليٍّ وهو يَقُولُ :
اخرُجْ منْ صُورَتِكَ البَشَرِيَّةَ إلى صُورَةِ حِمارٍ .

وفِي الحالِ صَارَ المِكانُ الَّذِي كانَ يَقِفُ فِيهِ عَلَى منذُ لحظةٍ ،
يَقِفُ بِهِ حِمارٌ ، ذو حَوَافِرَ وآذانٍ طَوالٍ وصَوْتٍ مُنْكَرٍ ، يَنْهَقُ
مِثْلَ بَقِيَّةِ الحَمِيرِ .

وخطَّ اليَهُودِيُّ بيدهِ دائِرَةً حَولَ الحِمارِ ، فإذا هَذِهِ الدَّائِرَةُ
سُورٌ قدْ أَحاطَ بِهِ لِيَمْنَعَهُ مِنَ الهَرَبِ .

وجَلَسَ اليَهُودِيُّ منْ جَدِيدٍ إلى مائدةِ الشَّرَابِ يَعْجَبُ مِنْهُ

آمنًا مُطمئنًا حتَّى انصرَمَ الليلُ وانبَلَجَ النَّهَارُ .
 وقامَ اليَهُودِيُّ إلى الصَّينِيَّةِ الَّتِي بِهَا الحُلَّةُ الَّتِي صَارَ عَلَى إلى
 مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِهَا ، فَرَفَعَهَا هِيَ وَالْقَصَبَةَ ، وَأَحْضَرَ جِرَابَهُ
 الَّذِي بِهِ ذَهَبُهُ وَفَضَّتُهُ ، فَوَضَعَهَا فَوْقَ ظَهْرِهِ عَلَى الَّذِي صَارَ حِمَارًا .
 ثُمَّ رَكِبَهُ هُوَ أَيْضًا وَهُوَ يَقُولُ لَهُ :
 سَرِيحُ البَعْلَةِ الْيَوْمَ وَنَرَكَبُكَ بَدَلًا مِنْهَا ، فَسَرُّ بِنَا إِلَى دَكَّانَا الَّذِي
 تَعْرِفُهُ حَقَّ المَعْرِفَةِ .

وَهَمَزَ اليَهُودِيُّ عَلِيًّا فَنَزَلَ بِهِ سَلَّمَ القَصْرَ ، وَمَا كَادَ يَسِيرُ بِهِ
 بَضْعَ خَطَوَاتٍ حَتَّى اخْتَفَى القَصْرُ مِنْ مَكَانِهِ وَكَأَنَّهُ مَا كَانَ .
 وَسَارَ الحِمَارُ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ إِنْسَانًا مُسْتَوِي الحَلِيقَةِ بِرَاكِبِهِ
 عَذْرَةَ اليَهُودِيِّ ، فَاجْتَازَ بِهِ الصَّحْرَاءَ إِلَى المَدِينَةِ ، وَدَخَلَ بِهِ إِلَى
 أَسْوَاقِهَا وَطَرَفَاتِهَا حَتَّى أَوْصَلَهُ إِلَى دَكَّانِهِ .

وَنَزَلَ عَذْرَةُ عَنْ ظَهْرِ الحِمَارِ ، وَرَبَطَتْهُ فِي حَلِيقَةِ مِنَ الحَدِيدِ
 بِجَوَارِ بَابِ الدَّكَانِ ، ثُمَّ دَخَلَ هُوَ إِلَى دَكَّانِهِ فَأَفْرَغَ كَيْسَ الفِضَّةِ
 وَالذَّهَبِ ، وَأَخَذَ يَمَارِسُ عَمَلَهُ الَّذِي كَانَ يَمَارِسُهُ بِالْأَمْسِ .

وظَلَّ عَلَى فِي مَرْبَطِهِ يَنْظُرُ إِلَى مَا يَجْرِي بِالْمِ وَحَسْرَةً ، وَيَسْمَعُ
 مَا يَقَالُ وَيَنْفَعُهُ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ النُّطْقَ إِلَّا بِصَوْتِ الحَمِيرِ ،
 فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْطِقَ نَهَقَ ، وَإِذَا غَضِبَ رَفَسَ ، وَإِذَا اسْتَمَعَ طَرَطَقَ
 أَذْنِيَهُ ، وَهَكَذَا كَانَ يَفْعَلُ كُلَّ مَا تَفْعَلُهُ الحَمِيرُ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ

وبينها إلا أن عقله عَقْلُ إنسان .
وبعد قليل أتى إلى اليهوديَّ رجُلٌ يحملُ سوارًا ، وقدَّمه
ليشتريه منه وهو يقول :

يا معلم عُذْرَةٌ ؛ اشتر مني هذا السوار بثمان غال ، ولا تبخسني
حتى فهذا السوار ملكٌ لزوجتي ، وما أجبرني على بيعه إلا أني
عاطلٌ لا تجارةَ لي ، ولا عملَ أرزقُ منه ، وأودُّ أن أشتري من
ثمنه حمارًا أشتغلُ عليه سقاء .

فقال اليهودي :

أتشتري مني حماري هذا ؟
فنظرَ الرجلُ إلى على فوجدَه حمارًا نظيفَ الجلد ، زاهي
اللون ، وأعجبه منظرُه ، فقال :

لا بأس يا معلم عُذْرَةٌ ؛ بعني إياه . . . !
واتفق الرجلان على ثمن الحمار ، فأخذه اليهوديُّ من ثمن
السوار ، ثم نقد الرجل باقي الثمن .

وأصبح على ملكًا لهذا المالك الجديد الذي اشتراه ليضعَ عليه
لوحًا عريضًا من الخشب . ومن فوقه يضعُ قرب الماء التي يقومُ
بتوزيع ماءها على الناس .

وحدثَ على نفسه :

يا ويلتي ممَّا سيحدثُ لي !! أأذهبُ كلَّ يومٍ إلى النهر لجلب

الماء ، وأظّل طيلةَ يومى أطوفُ به الأسواقَ والطُرقاتَ ، والأزقةَ
والحاراتَ ؟ !! إنَّ هذا لا قُدرةَ لى عليّه ولا احتمال .

وأتى الرَّجلُ بعلى إلى داره . وقالَ لزوجّته :

هّا قدُ اشتريتُ حمارًا مَليحًا فاعلفيه بالعَلِيق حتّى أذهبَ
لشراء ما يَكرُمُهُ منْ بَرْدعة ، وأبتاع ما سَأحمِلُهُ عليّه من
القَرَب .

فأحضرت المرأةُ فُولاً وشعيراً وضعتهما فى مَخلاة ، وتقدّمت من
الحمار لتعلقَ لهُ المَخلاةَ فى رقبته ليأكلَ منها ؛ فإِ كانَ منهُ إلّا
أنْ ضربَها برأسه ضربةً قويّةً جعلتَها تسقطُ على الأرض وهى
تصرُخُ وتُؤلُولُ وتُسْتَغيثُ .

واجتمعَ الجيرانُ على صُراخِ المرأة ، فعرفتُهمُ بما كانَ من
الحمار ، فأبعدوهُ عنها بعد أنْ ضربُوهُ ضرباً شديداً مُبرحاً .
وما لبثَ زوجُ المرأة أنْ جاءَ فأخبرتهُ بما فعلَ الحمارُ معها
وقالتُ :

لقدْ أوشكَ هذا الحمارُ أنْ يَقْتُلنى ، فلا بُدَّ من رَدّه إلى
صاحبهِ .

فسحبَ الرَّجلُ الحمارَ ، وعادَ إلى عُدرةِ الصّائغ ، وقالَ :
أنا لا أريدُ هذا الحمار !! لقد ضربَ زوجتى وكادَ أنْ يَقْتُلها ،
فخُذْهُ ورُدِّ لى مالى .

فردَّ عذرةً للرجل نقوده ، فأخذها وانصرف .
 أمّا عذرةُ فقد التفت إلى علي وقالَ لهُ :
 أتستعملُ أساليبَ اللُّؤْمِ والمكْرِ يا مشنومَ الوجْهِ ؟ ! سوفَ
 أريكَ ما أنا فاعلٌ بك إذا لمْ ترجعْ عن غيك
 ولما حانَ وقتَ انصرافِ اليهودي منْ دُكانه ، ركبَ الحمارَ ،
 وفعلَ ما فعلَ بالأمس ؛ فلما صارَ بالقصرِ أحضرَ طاساً مملوءاً
 بالماء ، وتلا التّماثمَ والرُّقى ، ثمَّ رشَّ عليّاً ، فخرجَ منْ صورةِ الحمارِ
 إلى صورته الأولى إنساناً مُستوى الخلقَةِ ، قويّاً وسيّاً ؛ فقالَ لهُ
 اليهودي :
 استمعْ لنُصْحِي يا عليّ ، وابتعدْ عنْ شري ، وانصرفْ عن
 طلبِ الحِلَّةِ التي جئتَ تنشدُها ، وارجعْ عنْ زواجِكَ منْ
 زَيْنَبَ .
 قالَ عليّ بإصرارٍ :
 لاَ يا عذرةُ ؛ بلْ لا بُدَّ لي أنْ أتزوَّجَ منْ زَيْنَبَ ، ولا بُدَّ
 أنْ أمهَرَهَا بحِلَّةِ ابنتك .
 قالَ اليهودي :
 ما دُمتَ لا تُريدُ أنْ تنزلَ عنْ رأيك ، فاستعدْ لما يجري
 عليّكَ .
 ورشَّ اليهودي عليّاً ثانيةً بالماء بعدَ أنْ تلا عزائمهُ ورقاهُ ،

وَهُوَ يَقُولُ لَهُ :

اخْرُجْ مِنْ هَبَيْتِكَ هَذِهِ إِلَى هَيْئَةِ دَبٍّ .

وَفِي الْحَالِ صَارَ عَلَى دُبًّا غَلِيظَ الْجِسْمِ ، طَوِيلًا ضَخْمًا ؛
فَشَدَّهُ الْيَهُودِيُّ إِلَى وَتْدٍ بِالْأَرْضِ ؛ وَجَلَسَ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ ،
وَيُلْقِي إِلَى الدَّبِّ بِنُفَايَةِ الطَّعَامِ ، وَيَصُبُّ فَوْقَ رَأْسِهِ مَا يَتَبَقَّى بِكَأْسِهِ
مِنَ الشَّرَابِ .

وَانْقَضَتْ اللَّيْلَةُ ، وَفِي الصَّبَاحِ صَحَبَ الْيَهُودِيُّ عَلِيًّا إِلَى الدَّكَانِ
وَرَبَطَهُ بِبَابِهِ بَعْدَ أَنْ كَتَمَ فَتَهُ وَدَخَلَ هُوَ لِمَزَاوَلَةِ أَعْمَالِهِ كَالْمُعْتَادِ .
وَمَرَّ رَجُلٌ بِالدَّكَانِ فَرَأَى الدَّبَّ مَرْبُوطًا بِبَابِهِ ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ :
هَذَا هُوَ مَا كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْهُ مِنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ .

فَتَقَدَّمَ مِنْ عُدْرَةِ الْيَهُودِيِّ وَقَالَ لَهُ :

أَتَبِيعُنِي هَذَا الدَّبُّ يَا مُعَلِّمُ عُدْرَةَ ، فَإِنَّ امْرَأَتِي مَرِيضَةٌ ، وَقَدْ
وُصِفَ لَهَا لَحْمُ الدَّبِّ وَالتَّدْهَنُ بِشَحْمِهِ . وَأَكَّدَ النَّاسُ أَنَّهَا لَا تَبْرَأُ
مِنْ مَرَضِهَا إِلَّا بِهَذَا .

فَفَرَحَ الْيَهُودِيُّ بِذَلِكَ ، وَوَجَدَهَا فُرْصَةً لِلخُلَاصِ مِنْ عَلَى ،
فَقَالَ لِلرَّجُلِ :

خُذْهُ مِنِّي هَدِيَّةً لَكَ وَلَا مَرَأَتَكَ دُونَ مُقَابَلٍ .

فَفَرَحَ الرَّجُلُ ، وَفَكَرَّ رِبَاطَ الدَّبِّ ، وَسَحَبَهُ رَغِمَ مُقَاوَمَتِهِ
حَتَّى مَرَّ بِهِ عَلَى دَكَانِ جِزَارٍ ؛ فَقَالَ لِمُصَاحِبِهِ :

أعدَّ عُدَّتَكَ ، وسنَّ سكاكينك ، وتعالَ معي لنذبحَ هذا
الدُّب .

فأخذَ الجزارُ أدواتَ الذبح ، والسلخ ، وصحبَ الرَّجلَ إلى
داره .

وهناكَ أمسكَ الجزارُ والرَّجلُ بالدُّب ، وأحكموا كَتافه ،
والدُّبُ يقاومُهُم بكلِّ قوته . حتَّى رَأَوْهُ قدْ قَفَزَ قَفْزَةً عَلاَ بها
فِي الفُضَاء . ثمَّ رَأَوْهُ - والدهشةُ تعقلُ ألسنتَهُم - وهوَ يسبحُ فِي
الهَوَاءِ مُبتعداً عنهم حتَّى غابَ .

وذلكَ أَنَّ جَنِيًّا هَبَطَ عَلَى عَلى ، وَحَمَلَهُ وَطَارَ بِهِ إِلَى قَصرِ
اليَهُودِي ، وكانَ اليَهُودِيُّ يجلسُ إِلَى ابنته قَمَرٍ يَأْكُلَانِ ويشربانِ ،
وكانَ قدْ قَصَرَ عَلَيْهَا مَا فَعَلَ مَعَ عَلَى الزَّئْبِقِ ، وَكَيْفَ سَحَرَهُ
حَمَارًا ثمَّ ، كَيْفَ صَارَ مَصِيرَهُ إِلَى الذَّبَحِ .
فَقَالَتْ قَمَرُ :

كُنْتُ أودُّ يَا أبِي لوَ تَرِثْتُ فِي مُعَامَلَةِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَطْمَعُ
فِي أَنْ يَنَالَ حُلَّتِي لِيَقْدِمَهَا مَهْرًا لِعَرُوسِهِ حتَّى أَرَاهُ .

فَقَالَ عُدْرَةُ : يَا بَنَتِي ؛ لوَ كَانَتْ هَذِهِ رَغْبَتُكَ فَمَا أَيْسَرَ أَنْ
أُرْسَلَ جَنِيًّا مِنْ خَدَمِي يَأْتِي بِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ لَتَرِيهِ .

وَنَقَدَ عُدْرَةُ مَا أَرَادَتْ ابنته قَمَرُ ، فَجَلَسَ يُطْلِقُ البُخُورَ
وَيَدْمِدُمُ وَيَتَمَتُّ وَيَهْمُهُمْ ، وَمَا هِيَ إِلَّا بِرُهَةٍ حتَّى كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ جَنِيٌّ

يَأْتِمُرُ بِأَمْرِهِ ، وَيَسْأَلُهُ نَحْمًا يُرِيدُ ؛ فَقَالَ لَهُ :

اذهَبْ وَاثْنِي بَعْلِي الزَّئْبِقَ الْمِصْرِيَّ حَيْثُ يَكُونُ .

فَطَارَ الْجَنِيُّ إِلَى حَيْثُ كَانَ عَلَى فِي هَيْئَةٍ دُبٍ بَيْنَ يَدَيِ الْجَزَّارِ ،
وَيُوشِكُ أَنْ يَذْبَحَ ، فَاخْتَطَفَهُ وَطَارَ بِهِ حَتَّى أَنْزَلَهُ بَيْنَ يَدَيِ عُدْرَةِ
وَابْنَتِهِ قَمَرَ ، وَهُمَا لَا يَزَالَانِ فِي مَجْلِسِهِمَا يَأْكُلَانِ .

وَتَنَاوَلَ عُدْرَةُ طَاسَتَهُ الْمَعْهُودَةَ ، وَتَلَا عَلَى مَائِهَا مَا يَتْلُو مِنْ
الْعَزَائِمِ وَالرُّقَى ، ثُمَّ رَشَّ بِمَائِهَا عَلَيَّاءَ وَهُوَ فِي هَيْئَةِ دُبٍ ، فَارْتَدَّ إِلَى
هَيْئَتِهِ الْأُولَى ، هَيْئَةِ رَجُلٍ سَوِيٍّ .

وَنَظَرَتْ قَمَرٌ إِلَى عَلِيٍّ فَرَأَتْهَا مِنْظَرَهُ ، وَأَعْجَبَتْ بِقَوَامِهِ وَوَسَامَتِهِ ،
فَقَالَتْ لَهُ :

يَا نَكَدَ الطَّالِعِ ، لِمَ تَتَطَلَّعُ إِلَى حُلَّتِي ، وَتَحْتَالُ لِلْحَصُولِ عَلَيْهَا ،
فَيَسْبِبُ لَكَ ذَلِكَ مَا كُنْتَ عَلَيْهِ مِنْ مَصِيرٍ ؟ !

قَالَ عَلِيٌّ :

لَأَنِّي قَدْ تَعَاهَدْتُ أَنْ أَجِيءَ بِحُلَّتِكَ لَتَكُونَ مَهْرًا لِمَنْ أُرِيدُ
أَنْ أَتَزَوَّجَهَا .

قَالَتْ :

اعْدِلْ عَن زَوَاجِكَ مِنْ هَذِهِ الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَتَلَفَ رُوحَكَ ،
وَتُورِدَ مَوَارِدَ الْهَلَاكِ ، فَمَا كُنْتُ بِأَمْهَرٍ مِنْ أَسْلَافِكَ الَّذِينَ سَبَقُوكَ
فِي سَبِيلِ هَذَا الْغَرَضِ ، فَكَانَ نَصِيْبُهُمُ الدَّمَارَ وَالْبَوَارَ . . . !



وحمل الجنى الدب وطار به إلى قصر اليهودى

فقال على :

لا بُدَّ أن يُسلمَ لي أبوك بما أريدُ وإلاَّ كان نصيبه مني في النهاية
أن أقتلهُ شرَّ قتلة .

فقال الأب لابنته :

ها قد رأيت يا بنتي مبلغَ عناده ، ومقدار طَمَعِهِ وسخافة عقله ،
وكيف يسعى إلى هلاك نفسه .
ثمَّ أخذَ طاسهُ وأخذَ يقرأ ويتمم ويدعّم من جديد ، فسألتهُ
ابنته :

ماذا تريدُ أن تفعل يا أُنَى ؟

قال :

لا أزيدُ على أن أصيرهُ كلبًا نجسًا .

فقالت الابنةُ :

بالله عليك يا أُنَى إلاَّ تركتهُ وأعطيتهُ وأعطيتهُ ، فرصةً لأن
أجعلهُ يرجعُ عمّا يعتزمُ ، فلعلّهُ أستطيعُ أن ألينَ رأسهُ ، وأجعلهُ
يُقلعُ عن تشدده وتضميمه .

فنهَرَ الأبُ ابنته ، وقال :

لا تتدخلِي فيما لا يعنِيك ، سأجعلهُ كلبًا نجسًا ، ولن
يرى الحياةَ الآدميةَ بعدَ ذلك قط .

وأسرَعَ عُدْرَةَ فرسٍ عليًّا بماء الطاس وهو يقولُ لهُ :
كنْ كلبًا .

فانقلبَ على كَلْبًا في الحال . . !

ولم يرقُ قَمَرٌ ما فَعَلَ أبوها بعلى ، ولكنها لم تَسْتَطِعْ أَنْ
تَفْعَلَ شَيْئًا ، فَجَلَسَتْ تُؤَاكِلُ أَبَاهَا وتُشَارِبُهُ على مَضَضٍ .
وفي الصَّبَاحِ صَحَبَ عَذْرَةَ الكَلْبِ مَعَهُ إلى المَدِينَةِ ، وَبَيْنَا هُوَ
يَسِيرُ وَعَلَى يَتَّبِعُهُ مَرَّةً عَلَى دُكَّانِ رَجُلٍ سَقَطَى يَبِيعُ الكُرَاعَ
ورُءُوسَ العُجُولِ ، قَدْ اجْتَمَعَ عَلَى دُكَّانِهِ عِدَّةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الكِلَابِ .
فَمَّا إِنْ رَأَتْ الكِلَابُ عَلِيًّا وَشَمَّتْ رَائِحَتَهُ حَتَّى أَخَذَتْ تَنْبَحُهُ نُبَاحًا
شَدِيدًا ، وَهَمَّتْ بِهِ تَرِيدُ أَنْ تُطَارِدَهُ فَقَامَ السَّقَطَى وَمَنَعَ الكِلَابَ
عَنْ عَلِيٍّ ، وَنَادَاهُ لِيَتَّبِعَهُ .

فَتَبَعَ عَلَى السَّقَطَى إِلَى دُكَّانِهِ ، فَأَعْطَاهُ الرَّجُلُ شَيْئًا كَثِيرًا
مِنَ اللَّحْمِ ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ فَأَكَلَ عَلِيٌّ حَتَّى اكْتَفَى إِذْ وَجَدَ
اللَّحْمَ نَظِيفًا شَهِيًّا .

وَأَثَرَ عَلَى مُصَاحِبَةِ هَذَا الرَّجُلِ السَّقَطَى الطَّيِّبِ الْقَلْبِ ، عَلَى
مُتَابَعَةِ الْيَهُودِيِّ إِلَى دُكَّانِهِ ، فَرَبَضَ بِالْقَرَبِ مِنْهُ شَاكِرًا لَهُ مَعْرُوفَهُ ،
مُقَدِّرًا جَمِيلَهُ ، صَابِرًا عَلَى مَكْرُوهِهِ ، لَعَلَّ اللَّهَ يَهَيِّئُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .
وَأَنْ وَقْتُ عَوْدَةِ السَّقَطَى إِلَى دَارِهِ ، فَأَغْلَقَ دُكَّانَهُ وَانصَرَفَ ؛
فَقَامَ عَلَى وَسَارَ وَرَاءَهُ يَتَّبِعُهُ ، عَنْ كَثْبٍ وَلَمْ يَشَأْ الرَّجُلُ أَنْ
يَطْرُدَهُ ، فَتَرَكَهُ يَتَّبِعُهُ إِلَى دَارِهِ .

وَدَخَلَ الرَّجُلُ إِلَى بَيْتِهِ وَعَلَى مِنْ خَلْفِهِ فَمَّا إِنْ وَقَعَتْ عَيْنَا
ابْنَةِ الرَّجُلِ عَلَيْهِ حَتَّى دَقَّتْ صَدْرَهَا بِيَدٍ ، وَغَطَّتْ وَجْهَهَا بِالْيَدِ

الأخرى ، وهى تقول :

يا أبت ، أتجئ بالرجل الغريب فتدخله علينا . . . ؟ !

فقال الرجل :

يا بنى ، أى رجل تقصدين . . . ؟ ! وتلفت عن يمينه وعن شماله ، ونظر خلفه وقدامه ؛ فلم ير إلا الكلب الذى يتبعه ، فقال لها :

ليس هنا إلا هذا الكلب الذى يتبعنى . . . !

قالت :

ما هو بـكلب ، وإنما هو رجل اسمه على الزئبق المصرى ، سحرة عذرة اليهودى إلى هذه الصورة فنظر الرجل إلى ابنته دهشاً مستعجباً ، وقال :

ومن أعلمك هذا ؟

قالت :

لأنى تعلمت السحر على يد جاريتك ، ولكنى لم أخبرك ، فأنا أميز بين المسحور وغير المسحور .

فجعل الرجل ينظر إلى ابنته تارة وإلى الكلب تارة أخرى وهو لا يصدق كلام ابنته ويضرب كفاً بكف ويقول :

عجباً . . . ! هذا آدمى . . . ! هذا إنسان . . . !

فأرادت ابنته أن تؤكد له ما تقول فنظرت إلى على وقالت :

ألست أنت عالياً المصرى ؟

فأومأ لها الكلبُ برأسه أن : نعم .
 فقال الرَّجُلُ :
 وكيفَ يكونُ الخلاصُ لهذا الرَّجُلِ . . ؟ .
 فقالتِ الابنةُ :
 أنا أستطيعُ أن أخلّصهُ لو وَعَدَنِي بالزَّواجِ مِنِّي .
 فسألَ الرَّجُلُ عَلِيًّا :
 هلْ تَتَزَوَّجُ ابنتي إذا خَلَّصْتُكَ ممَّا أَنْتَ فِيهِ ؟
 فأشارَ عَلِيُّ أن : نَعَمْ .
 فأحضرت الفتاةُ طاسَ ماء ، وأخذتُ تتلوُ عَلَيَّهِ وتُتمِّمُ ،
 وإذا بصرخةٍ عظيمةٍ مُدويةٍ انطلقتُ في أرجاء البيت ، جَعَلَتْ
 الفتاةَ تَتَوَقَّفُ عَمَّا كَانَتْ بِسَبِيلِهِ .
 ونظَرَ الجميعُ إلى مصدرِ الصرخةِ فإذا فتاةٌ تطلُّ على ابنةِ السَّقَطِيِّ
 من أعلى الدارِ وهي تَقُولُ :
 أهذا هُوَ العهدُ بَيْنِي وبَيْنِكَ يا سيدتي ؟ !
 ألمْ تتعهدي يومَ عَلَّمْتُكَ السَّحَرَ ألا تمارسيه إلاَّ بِحُضُورِي ؟ !
 ألمْ تُقَسِّمِي لي أنَّ الذي يَتَزَوَّجُكَ يَتَزَوَّجُنِي . . ؟ !
 فنظَرَ الرَّجُلُ إلى ابنته نظرةَ استفهامٍ ، ولكنها نظرتُ إلى الفتاة ،
 وقالتُ :
 حَقًّا ! لقدِ اشترطتِ عَلَيَّ ذلكَ يومَ أنَّ عَلَّمْتَنِي السَّحَرَ !
 فقالَ الرَّجُلُ :

ومن الذى علّمها . . . ؟ !

قالت :

سألها هى تخبرك .

فسأل الرجلُ الجارية :

من علّمك السحرَ يا جارية ؟

قالت الجارية :

لقد تعلّمتُ يا سيدى السحرَ من عذرة اليهودى قبل أنْ
تشربنى منه ، إذ كنتُ أَسْلَلُ وأراقبه وهو يتلو تماّعه ، ويزاولُ
تعاويذه ، ويطلقُ بخوره ، فإذا ما خرجَ من الدار عَكَفْتُ على
كُتْبِهِ ومخطوطاته أقرأها وأستوعبها حتى تعلّمتُ السحرَ . وألمتُ
بالعلومُ الرُوحانية ؛ فلما اشتريتنى منه وَجِئْتُ إلى هنا علّمتُ
سيدتى الصّغيرةَ السحرَ ، واشترطتُ عليها ألاّ تراوله إلاّ بمشورتى ،
وأن الذى يتزوّجها تقبّلُ أنْ يتزوّجنى معها .
ثم أخذتُ الجارية طاسَ الماء من يد ابنة السّقطى وأخذتُ
تتلو عليه ثم رشّت به عليها وهى تقولُ :

ارجعْ إلى صُورتك البشريّة .

فعادَ إنسانًا كما كانَ أولاً ، ففرحوا بذلك جميعًا ، ورحبَ
السّقطى بعلّى . وقالَ له :

ما قصّتك يا فتى ؟ وما سببُ ما كنتَ عليه . . . ؟ !

فجلّسَ على بينَ الرجلِ وابنته والجارية يقصُّ عليهم ما كانَ

من أمره ، فلمّا انتهى سأله الرجل :
والآن . . على أى شيء عزّمت ؟ ألا يكفّيك الزّواج من ابنتي
والجارية ؟

قال على :
لا بدّ من الزّواج من زَيْنَب .
وبينما همّ كذلك إذْ بقرع على الباب ، فسألت الجارية :
من بالباب ؟
فأجاب صوت نسائي :
أنا قمر بنت عذرة اليهودى ، أليس على الزّئبق بمنزلكم ؟
فقال ابنة السّقطى :
وماذا تريدن منه يا ابنة اليهودى لو كان عندنا ؟
فقال على :

افتحوا لها الباب حتّى نرى ماذا تريد .
فلمّا فتح الباب ودخلت قمر قال لها على :
ماذا تريدن يا شقيّة ، يا ابنة الشّقى ؟ !

قالت :
أريد أن أسأل . . أيهمّر الرجال النساء ، أم تمهّر النساء
الرجال فى دينكم ؟ !
قال على :
إنما الرجال يمّهرون النساء .

قالت :

وأنا جئتُ أمهر نفسي لكَ بالحلّة والقَصَبَة والسَّلاسِل ، ورأس
أبي عدوك وعدو الله .
ثم فتحتُ كيسًا كبيرًا كانت تحملُهُ ، وأخرجتُ لعلی الحلّة
التي رأى في سبيلها من الأهوال ما رأى ، وأعطتهُ كذلك الصينيةَ
والسلاسلَ والقَصَبَة الذهبية ، ثم أخرجتُ لهُ رأسَ أبيها ملفوفًا
بقطرٍ منه الدمُ .
فسألها الجميعُ بلسان واحد - وقد أخذتهمُ الدهشةُ واستبدَّ بهم
العجبُ :

هل قتلْتَ أباك . . ؟

قالت :

بعدَ أن سحرَ أبي عليًّا كلبًا ، رأيتُ في المنام هاتِفًا
يهتِفُ بي أن : أسلمى يا قمر ، وأعرضى على أهلك الإسلامَ ،
فإن رَفَضَ فاقْتُلْهُ ، فهبتُ من نومي ، وذهبتُ إلى أبي أعرضُ
عليه الإسلامَ وكنتُ أعلمُ أن لا دينَ لهُ ، فأعرضَ عني وسبني
ووعدني بالعذاب والعقاب إن لم أرجعَ نعمةً أنا فيه فسكتُ عنهُ
حتى نامَ ، ثم جئتُ بالسيف وحزرتُ رأسهُ ، وجئتُ به لعلی ،
وحملتُ إليه ما كانَ يطلبُ من الحاجاتِ ، وكذلك لأعرضَ
عليه الزَّواجَ .

فأخذَ عليّ الحاجاتِ بما فيها رأسُ اليهودي وقال :

سأنصرفُ أنا الآن ، وقابلوني جميعاً غداً عندَ الحاكم لِنرى
ما سيَكُونُ .

١٢

وَسَارَ عَلَى الْكَيْسِ الَّذِي أَتَتْهُ بِهِ قَمَرُ بِنْتُ عُدْرَةَ الْيَهُودِي
وَهُوَ لَا يَكَادُ أَنْ تَسْعَهُ الْأَرْضُ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ وَعَظِيمِ ابْتِهَاجِهِ .
وَبَيْنَمَا هُوَ يَجِدُ السَّبْرَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى إِيوَانَ أَحْمَدِ الدَّنْفِ ، شَهِدَ
عَلَى قَارِعَةِ إِحْدَى الطَّرِيقَاتِ شَابًّا يَقِفُ أَمَامَ قَاعِدَةٍ مِنَ الْخَشَبِ عَلَيْهَا
صِينِيَّةٌ بِهَا أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنْ أَصْنَافِ الْحَلْوَى ، وَرَأَى عَلَى هَذَا
الشَّابِّ يُشِيرُ إِلَيْهِ وَيُنَادِيهِ وَهُوَ يَسْتَحْلِفُهُ أَنْ يَتَذَوَّقَ حَلْوَاهُ ،
وَيَبْدَى فِيهَا رَأْيَهُ ؛ فَاقْتَرَبَ عَلَى مَنْ بَاعَ الْحَلْوَى وَأَخَذَ مِنْهُ
قِطْعَةً كَانَتْ يَمْدُ لَهُ بِهَا يَدُهُ وَأَكَلَهَا ، فَمَا كَادَتْ تَسْتَقِرُّ فِي جَوْفِهِ
حَتَّى دَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، وَسَقَطَ غَائِبًا عَنِ الْوُجُودِ ، فَقَدَّأَ
وَعَيْهِ . فَأَسْرَعَ بِائِعُ الْحَلْوَى إِلَى الْكَيْسِ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُهُ عَلَى
فَأَخَذَهُ وَوَضَعَهُ فِي الْقَاعِدَةِ الَّتِي يَضَعُ عَلَيْهَا الصِّينِيَّةَ ، وَحَمَلَ
هَذِهِ وَتَلَّكَ وَسَارَ مُنْصَرِفًا .
وَلَكِنَّهُ مَا كَادَ يَسِيرُ قَلِيلًا حَتَّى قَابَلَهُ رَجُلٌ يَبْدُو عَلَيْهِ
الْوَقَارَ وَالْهِيبَةَ وَيَلْبَسُ مَلَابِسَ الْقَضَاةِ ، فَقَالَ لَهُ :
يَا بَائِعَ الْحَلْوَى ، أَرْنِي مَا مَعَكَ مِنْ حَلْوَى . لِأَشْتَرِيَ
شَيْئًا مِنْهَا .

فَحَطَ الْحَلَوَانِيُّ قَاعِدَتَهُ ، وَمِنْ فَوْقِهَا صِينِيَّةٌ ، وَأَعْطَى الرَّجُلَ مَا رَغِبَ فِي شِرَائِهِ ، وَلَكِنْ الْقَاضِي أَمْسَكَ بِالْحَلْوَى ، وَقَارَبَهَا مِنْ أَنْفِهِ يَشْمُهَا ، وَمِنْ لِسَانِهِ يَتَذَوِّقُهَا ، ثُمَّ قَالَ لِلْبَائِعِ : يَا هَذَا الرَّجُلُ ؛ لَمْ يَلَا تَصْنَعُونَ حَلْوَاكُمْ الْآنَ أَصْنَافًا جَيِّدَةً ؟ !
 إِنَّ هَذِهِ الْحَلْوَى مَغْشُوشَةٌ . وَمِنْ أَنْوَاعٍ رَدِيئَةٍ .
 وَوَضَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ ، ثُمَّ أَخْرَجَهَا وَبِهَا شَيْءٌ مِنَ الْحَلْوَى وَهُوَ يَقُولُ :

انظُرْ إِلَى هَذِهِ الْحَلْوَى وَتَذَوِّقُهَا ، وَاصْنَعْ مِثْلَهَا ، يُحِبُّ النَّاسُ حَلْوَاكَ وَيُقْبَلُونَ عَلَى شِرَائِهَا .

فَأَخَذَ الْحَلَوَانِيُّ مِنَ الرَّجُلِ مَا قَدَّمَهُ لَهُ مِنَ الْحَلْوَى . وَأَخَذَ جُزْءًا مِنْهَا ، وَوَضَعَهُ فِي فَمِهِ لِيَذُوقَ طَعْمَهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُبْدِيَ رَأْيًا ، أَوْ يَحْكُمَ عَلَى جَوْدَةِ الْحَلْوَى أَوْ رَدَائِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَضَعُهَا عَلَى لِسَانِهِ حَتَّى سَقَطَتْ فِي الْحَالِ عَلَى الْأَرْضِ وَقَدْ غَابَ رُشْدُهُ وَفَقَدَ وَعْيَهُ .

فَتَقَدَّمَ الرَّجُلُ مِنَ الْقَاعِدَةِ الَّتِي بِهَا الْكَيْسُ الَّذِي أَخَذَهُ الْحَلَوَانِيُّ مِنْهُ عَلَى ، فَرَفَعَ الصِّينِيَّةَ . وَأَخَذَ الْكَيْسَ ثُمَّ رَفَعَ الْحَلَوَانِيُّ وَوَضَعَهُ فِي الْقَاعِدَةِ وَغَطَّاهَا بِعَبَاءَةِ الْقُضْبَةِ الَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا ، ثُمَّ حَمَلَ الْقَاعِدَةَ وَالْكَيْسَ وَسَارَ بِهِمَا .

وَاجْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْمَارَّةِ حَوْلَ عَلَى الزُّبَيْقِ وَهُوَ رَاقِدٌ عَلَى الْأَرْضِ غَائِبًا عَنْ وَعْيِهِ لَا يَدْرِي مِمَّا يَدُورُ مِنْ حَوْلِهِ شَيْئًا وَسَأَلَ

بعض المارةً بعضاً :

ما بالُ هذا الرجلِ مطروحاً على الأرض . . ؟ ! وما الذى
حدثَ له . . . ؟ !

وبينما هم كذلك ، شقَّ هذا الجمعُ بضعةً رجال ، تقدمَ
أحدهمُ من على وهو راقدٌ على الأرض ، فشَمَّمهُ فى أنفه شيئاً
ما إن دخلتُ رائحتهُ إلى معاطسه حتى ابتدأ يتحركُ وتذبُّ فيه
الحياةُ . ويعود إليه عقلُهُ .

وفتحَ على عَيْنَيْهِ ، فرأى من حوله جمعاً من الناس يلتفون
حوله . ورأى بالقرب منه وجهاً عرفه ، فسأل صاحبه :

أين أنا يا على كُتِفَ الحمل . . . ؟

أجابَ على كُتِفَ الحمل - وكان هو الذى شَمَّمَ عليّاً
الزئبق الترياق الذى أفاقه من خدره :

لقد وجدناك مَبْنِجاً ها هنا ؛ فمن الذى يَنْجِكَ ؟

فتذكرَ على ما كان من أمره معَ الحلوانى وأدركَ أنَ الحلوانى هوَ
الذى فعلَ معه ما فعلَ ، فكاد أنَ يَنْشَقَّ غيظاً وقهراً ، وأنَ يَنْفَطِرَ
حُزْناً على ضياع الكيس ، بعد أن لاقى ما لاقى فى سبيل الحصول
عليه .

قالَ على كُتِفَ الحمل :

قُمْ بنا يا على إلى قاعة رئيسنا أحمد الدنف حتى تستجمَ
وتستريح .

وعَاوَنَ عَلَى كَتْفِ الْحَمَلِ وَأَصْحَابَهُ الَّذِينَ أَتَوْا مَعَهُ عَلِيًّا الْمَصْرِيَّ
عَلَى السَّيْرِ بَيْنَهُمْ حَتَّى وَصَلُوا بِهِ إِلَى إِيوَانَ الرَّئِيسِ .
وَقَالَ أَحْمَدُ الدَّنَفِ يَسْأَلُ عَلِيًّا الْمَصْرِيَّ حِينَ دَخَلَ عَلَيْهِ :
يَا عَلِيُّ ! مَاذَا فَعَلْتَ فِي غَيْبَتِكَ ؟ أَجِئْتَ بِالْحُلَّةِ الَّتِي غَادَرْتَنَا
فِي طَلَبِهَا ؟ !

أَجَابَ عَلِيُّ :

لَقَدْ جِئْتُ بِهَا وَبَغِيرَهَا ، وَجِئْتُ بِرَأْسِ صَاحِبِهَا ؛ وَلَكِنِّي
وَقَعْتُ فِي يَدِ رَجُلٍ حُلَوَانِي قَدِمَ إِلَيَّ فِي غَفْلَةٍ مَنَى بِنَجَا غَابَ
بِسَبَبِهِ وَعَمِي ، وَفَقَدْتُ رُشْدِي ؛ وَمَا كَدْتُ أَفِيقُ مِنْهُ حَتَّى
تَحَسَّسْتُ الْكَيْسَ وَمَا كَانَ مَعِيَ فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا ، وَمَا أَشُكُّ فِي
أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَخَذَ الْكَيْسَ بِمَا فِيهِ .

وَجَعَلَ عَلِيُّ يَصِفُ لِلْحَاضِرِينَ الْحُلَوَانِيَّ ، ثُمَّ سَأَلَهُمْ :

أَتَعْرِفُونَ مَنْ يَكُونُ ذَلِكَ الرَّجُلُ صَاحِبَ هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي

ذَكَرْتُهَا لَكُمْ . . . ؟ !

قَالَ حَسَنُ شُومَانَ :

أَنَا أَعْرِفُهُ يَا عَلِيُّ .

فَقَالَ عَلِيُّ بِلَهْفَةٍ :

مَنْ يَكُونُ ؟ ! وَأَيْنَ هُوَ ؟ ! وَمَا سَبِيلِي إِلَيْهِ ؟

قَالَ حَسَنُ شُومَانَ :

تَعَالَ مَعِيَ لِأَدْلِكَ عَلَيْهِ .

ونَهَضَ حَسَنُ سُومَانَ ، فَدَخَلَ إِلَى أَحَدِ السَّرَادِيبِ الَّتِي يَنْتَهِي
بِقَاعَةِ ضَيْقَةٍ فِي دَاخِلِ الْإِيوَانِ ؛ فَتَبِعَهُ عَلَى وَهْوٍ فِي دَهْشَةٍ ،
وَعَجِبَ مِنْ أَمْرِهِ : وَتَزَايَدَتْ هَذِهِ الدَّهْشَةُ ، وَبَلَغَ مِنْهُ الْعَجَبُ
كُلَّ مَبْلَغٍ حِينَ وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَى الْحُلَوَانِي مَمْدُوداً بِأَرْضِ الْقَاعَةِ .

وَسَأَلَ عَلَى حَسَنَ سُومَانَ :

مَنْ أَتَى بِهَذَا الرَّجُلِ الْحُلَوَانِي إِلَى هُنَا ؟

قَالَ حَسَنُ سُومَانَ :

أَنَا الَّذِي أَتَيْتُ بِهِ .

وَمَالَ حَسَنُ سُومَانَ نَحْوَ الْحُلَوَانِي وَنَشَقَّهُ مَحْلُولاً جَعَلَهُ يُفِيقُ
شَيْئاً فَشَيْئاً مِمَّا كَانَ بِهِ مِنْ تَأْثِيرِ الْبَنْجِ .

وَأَفَاقَ الْحُلَوَانِي وَنَظَرَ حَوَالِيَهُ فَوَجَدَ حَسَنَ سُومَانَ وَعَلِيَّ
الرُّبُوقِ ، وَوَجَدَ كَذَلِكَ أَحْمَدَ الدَّنْفِ وَبَقِيَّةَ عَصَابَتِهِ ، وَكَانُوا
قَدْ دَخَلُوا هُمْ أَيْضاً إِلَى الْقَاعَةِ فِي أَثَرِ حَسَنَ سُومَانَ وَعَلَى الرُّبُوقِ
يَلْتَفُونَ مِنْ حَوْلِهِ :

وَفَزَعَ الْحُلَوَانِي ، وَتَمَلَّكَهُ الرُّعْبُ . وَصَاحَ بِصَوْتٍ مَخْتَقٍ :

أَيْنَ أَنَا ؟ وَمَنْ الَّذِي قَبَضَ عَلَيَّ ؟

قَالَ حَسَنُ سُومَانَ :

أَنَا الَّذِي قَبَضْتُ عَلَيْكَ ، وَجِئْتُ بِكَ إِلَى هُنَا ، وَاعْلَمْ

أَنَّكَ الْآنَ فِي إِيوَانِ أَحْمَدَ الدَّنْفِ .

عِنْدَئِذٍ تَقَدَّمَ عَلَى الرُّبُوقِ مِنَ الْحُلَوَانِي يَرِيدُ أَنْ يَبْطِشَ

به ليشقى بعض ما فى نفسه من غيظ شديد بما فعل معه ،
فقال له حسن شومان :

ارفع عنه يدك يا على ، ولا تمسه بأذى ؛ فإنه صهرك !!
فحملق على فى حسن شومان مستعجبا وقال :

صهرى ؟! أى صهر هذا . . ؟!

أجاب حسن شومان :

هو أحمد اللقيط ابن أخت زينب التى دوّخك مهرها ،
بنت ديلة المحتالة . . . !
فقال على :

ولأى شىء فعلت معى ذلك يا لقيط ؟!

قال أحمد اللقيط :

بذلك أمرتني جدتي ديلة حينما أخبرها أخوها زريق السمّك
بما كان بينه وبينك من عهد بشأن مهر ابنتها زينب . فقد
أحضرتني وسألتنى :

هل تعرف عليّا الزئبق ؟

قلت لها :

نعم أعرفه ، فقد أرشدته إلى إيوان أحمد الدنف يوم جاء
إلى بغداد .

قالت :

إذن تنكّر في زى حلوانى ، وتربّص له بالطريق كل يوم ،

حتَّى إذا ما رأيته قد عاد مُنْتَصِراً مِنْ عِنْدِ عُدْرَةِ الْيَهُودِيِّ وَمَعَهُ
حُلَّةُ ابْنَتِهِ قَمَرَ - فَتَحَايِلُ عَلَيْهِ بِحِيلَةٍ حَتَّى تَأْخُذَهَا مِنْهُ ، وَاتْنِي
بِهَا ، وَعَلَى ذَلِكَ تَنَكَّرْتُ وَفَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ وَلَا أَدْرِي السَّبَبَ الَّذِي
أَوْقَعَنِي فِي أَيْدِيكُمْ .

قالَ حَسَنُ شُومَان :

السَّبَبُ هُوَ أَنَّ أَحْمَدَ الدَّنْفِ اسْتَبْطَأَ عَوْدَةَ عَلَى الزُّبَيْقِ
فَبَعَثَ بَعْدَ مِنْ رَجَالِهِ - وَمِنْهُمْ أَنَا لِلْبَحْثِ عَنْهُ ، وَتَسْقُطُ أَخْبَارُهُ ،
فَتَنَكَّرْتُ أَنَا فِي زِيِّ قَاضٍ . وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَجُوبُ أَطْرَافَ الْمَدِينَةِ رَأَيْتُكَ تَمْعَلُ
بِمَلَى مَا فَعَلْتَ ، فَفَعَلْتُ أَنَا مَعَكَ مِثْلَ مَا فَعَلْتَ مَعَهُ ، وَجِئْتُ
بِكَ إِلَى هُنَا حَتَّى نَقْفَ عَلَى خَبْرِكَ ، وَنَعْرِفَ حَقِيقَتَكَ وَغَايَتَكَ ،
وَأَرْسَلْتُ إِلَى عَلَى مِنَ الرِّجَالِ مَنْ عَمِلُوا عَلَى إِفَاقَتِهِ وَالْحِجَى بِهِ .

فَقَالَ أَحْمَدُ الدَّنْفُ لِأَحْمَدِ اللَّقِيطِ :

اذهَبِ الْآنَ إِلَى جَدَّتِكَ وَخَالَكَ زُرَيْقٍ ، وَأَعْلَمْهُمَا أَنَّ عَلِيًّا
الزُّبَيْقِ قَدْ جَاءَ بِمَا طَلَبَا مَهْرًا لَزَيْنَبَ ، وَأَبْلَغَهُمَا أَنَّ يُقَابِلَانَا
غَدًا بِدِيَوَانِ الْخَلِيفَةِ لِيَتَسَلَّمَا مَهْرَهَا .

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي صَحَبَ أَحْمَدُ الدَّنْفِ عَلِيًّا الْمَصْرِيَّ إِلَى
دِيَوَانِ الْخَلِيفَةِ وَمَعَهُمَا الْكَيْسُ وَبِهِ حُلَّةُ قَمَرَ وَالصِّينِيَّةُ وَالسَّلَاسِلُ
وَالْقَصَبَةُ ، وَرَأْسُ الْيَهُودِيِّ وَقَدْ غَرَزَهُ عَلَى فِي مِزْرَاقٍ طَوِيلٍ
مِنَ الْخَشَبِ .

ومثل الجميعُ أمامَ الخليفة : علىُّ الزُّبَيْق . ورئيسه أحمدُ الدَنْف وحسن شومان . ودليلةُ المختالة ، وأخوها زُرَيْق ، والسَّقْطِيُّ وابْنَتُهُ وجَارِيَتُهُ ، وقمرُ ابْنَةِ عُدْرَةِ الْيَهُودِي .

وتقدَّمَ علىُّ منَ الخليفة . وقدمَ إليه رأسَ الْيَهُودِي وهو يَقُول :
هَذَا هُوَ رَأْسُ السَّاحِرِ الْمَاكِرِ عَدُوِّ اللَّهِ .
فسألَ الخليفةُ عَنْ سَبَبِ قَتْلِهِ . وعَمَّن قَتَلَهُ ، فَقَصَّ عَلَيْهِ
عَلَى قِصَّتِهِ ، وأخبرَهُ ما كَانَ . . . !

فأعْجَبَ الخليفةُ بعَلَى أَيْمًا إعْجَابًا ، وقالَ لَهُ :
قَدْ وَهَبْتُ لَكَ يَا عَلِيُّ ما كَانَ لِلْيَهُودِي بَعْدَ أَنْ كَانَ مُلْكًا
لِيبْتِ الْمَالِ ، وَلَكَ حَقُّ التَّمَنِّي عَلَىَّ بِمَا تُحِبُّ وَتَرْغَبُ .
قالَ عَلِيُّ :

تَمَنَّيْتُ عَلَيْكَ أَنْ أَقِفَ عَلَى بَسَاطِكَ ، وَأَنْ يَكُونَ عَيْشِي
فِي كَنْفِكَ مِنْ جُودِكَ وَإِنْصَافِكَ .
فسألهُ الخليفةُ :

هَلْ لَكَ صَبِيَانٌ وَغُلَمَانٌ يَا عَلِيُّ ؟

أجابَ عَلِيُّ :

نَعَمْ ؛ لِي أَرْبَعُونَ صَبِيًّا ، وَلَكِنَّهُمْ فِي مِصْرَ .
قالَ الخليفةُ :

أَرْسِلْ إِلَيْهِمْ لِيَحْضُرُوا إِلَى بَغْدَادَ .

ثم سأله :

هل لك إيوان أو مسكن تملكه .

قال علي :

لا يا مولاي ، وأنا أنزل عند رئيسي أحمد الدقف .

فقال حسن شومان :

يا مولاي ، أنا أضع إيواني تحت تصرفه .

فقال الخليفة :

إيوانك لك يا حسن شومان ، ومن الغد يكون لعلی وغلما نه

إيوان مثله .

ثم أمر الخليفة خازنه أن يصرف للمهندسين والمعماريين ما يقوم ببناء إيوان لعلی الزئبق . يحوى أربعة أهياء ، وواحداً وأربعين مخدعاً .

عندئذ تقدمت قمر بنت عذرة اليهودي من الخليفة ، وعرفته بنفسها . ثم قالت :

وقد جئتكم يا مولاي أشهر إسلامي بين يديك .

ونطقت بالشهادتين . ثم قالت :

وقد صحيت يا مولاي بحياة أبي وبحلتي إرضاء لعلی ؛ وكان

قد اتفق معي على أن يتخذني زوجاً له ؛ فهل هو عند شرطه؟

فقال الخليفة :

ألا تعلمين أنه إنما يُريدُ الزَّوَّاجَ مِنْ زَيْنَبَ وأنه قد جاءَ
بِمَهْرُهَا بما اشترطتُ عَلَيْهِ .

قالتُ :

وإنَّمَا أنا الذى أتيتُهُ بِحُلَّتِي التى كانَ يرُغِبُ فيها ،
واشترطتُ عَلَيْهِ الزَّوَّاجَ مِنى عَلَى أنْ أَسْلِمَهُ لِيَاهَا .

فقال الخليفةُ لعلی :

أَتَقْبِلُ الزَّوَّاجَ يَا عَلَى مِنْ قَمَرٍ جَزَاءَ مَا تَكَبَّدْتُ مِنْ أَجْلِكَ
وَقَدَّمْتُ لَكَ .

فقالَ عَلَى :

أَقْبِلُ يَا مَوْلَاى مَا دمتَ رَاضِيًا .

عندئذ تقدمت ابنةُ السَّقَطِي وَجَارِيَتُهُ ، وقصَّتْ كُلَّ مِنْهُمَا

قِصَّتَهَا وَقَالَتَا :

نحنُ اللتان أنجيناَهُ مِمَّا كانَ فيه ، وقد اشترطنا عَلَيْهِ
الزَّوَّاجَ مِنَّا مُقَابِلَ مَا قُمْنَا بِهِ نَحْوَهُ فَتَقَبَّلَ .

فسألَ الخليفةُ عَلِيًّا :

وَمَا رَأَيْلِكَ فِي هَاتَيْنِ الْفَتَاتَيْنِ يَا عَلَى ؟

قالَ عَلَى :

وَقَدْ قَبِلْتُ الزَّوَّاجَ مِنْهُمَا بِمَا وَعَدْتُ .

فقالَ الخليفةُ :

يا على ، ألك حاجة أخرى تود قضاءها ؟
قال على :

نعم ، بقى أن تكون واسطة بين زينب وأمها وخالها في
زواجي منها ، فقد جئت بالحلة مَهراً لها .

عندئذ تقدمت زينب من الخليفة تقول :

يا مولاي : لقد كنت أنا الزوجة الوحيدة التي ينشدها حين
اشترطت عليه أن يمهرني بحلة بنت اليهودى . أما الآن فقد قبل
أن يتزوج من ثلاث غيرى ، وهذا وضع لا أرضاه أنا ، فلا
أحب أن تكون لى ضرة واحدة فضلاً عن ثلاث ضرائر .
فقال الخليفة :

يا زينب : لقد اشترطت أنت وأمك وخالك على على أن
يأتیکم بالحلة ، فجاء بها ، أما أن يتزوج غيرك فلم يكن عليه
بينكم شرط ، ثم ما كان زواجه من هؤلاء النساء بمحض رغبته
واختياره من أول الأمر ، بل تسبب فيه ذلك الشرط الذى
اشترطتموه عليه ، وكل واحدة من هؤلاء الفتيات أسهمت بنصيب
فى تيسير إحضار حلة قمر ، بل إن إحداهن صحت بأبيها
فى سبيل حصول على الحلة ، وخرجت من دينها إلى دين
آخر من أجل على . . .

عند ذلك لم تجد زينب إلا أن تنزل على رأى الخليفة

وإرادته ، «فَقَبِلْتُ» الزَّوْجَ مِنْ زَيْنَبَ ، ووافقتُ على ذلك أمها
دليلاً ، وقَبِلَ خَالَهَا زَرْيَقُ .

فأمر الخليفةُ بإحضار القاضي لكتابة العُقود ، وتوثيق الزَّوْاجِ ،
فحَضَرَ ، وعَقَدَ عَقْدَ زَيْنَبَ بِنْتُ دليلة المحتالة على عَلىِ المِصرى ،
كما عَقَدَ عَقْدَ قمر وابنة السَّقَطَى وجاريته عَليْه أيضاً .

كما أَمَرَ الخليفةُ بإرسال كتاب إلى مصر يطلبُ فيه من غلمان
على الزَّيْبَقِ الحُضُورَ إلى بَغْدَادَ

وأقيمَ لعلَى المِصرى فَرَحٌ ، نُصِبَتْ فيه السراذقاتُ ، وأُضيئتُ
الأنوارُ ، وأُحييتُ الليالي بالغناء الحلو من أمهر المُغَنِّينَ ، وبألعاب
السحر والشعوذة من كبار السحرة والمشعوذين ، واستمرَّ الفرح أياماً وليالي
ذوات عدد زُفَّتْ إليه في نهايته زَيْنَبُ بِنْتُ دليلة وهى مجلوةٌ في
حُلَّةٍ قمر الذهبية المَرَصَّعة بالجوهر ، كما زُفَّتْ إليه قمرُ وابنةُ
السَّقَطَى والجارية .

وتمَّ بناءُ إيوان على الزَّيْبَقِ ، فأُسكنَ فيه على غلمانَه الذين
كانوا قد أتوا إلى رئيسهم على جناح السرعة حين جاءهم طلبُه
مُعَزَّزاً برغبة الخليفة .

وأفردَ علىُّ لكل زوجةٍ من زَوْجَاتِهِ جناحاً خاصاً بها في
ناحيةٍ من الإيوان ، وعاشوا جميعاً في تَبَاتٍ وَنَبَاتٍ ، وخالَفُوا
بنينَ وَبَنَاتٍ .

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٣٤٩٢
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3245-9

١ / ٩٠ / ١٨٤ طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

الفيلسوف

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التي تنتمي إلى التراث الشعبي.. والتي نالت إهتماماً عالمياً في الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التي تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التي توجد في طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذي تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

- | | |
|---------------------|-----------------------------------|
| ١ - شهرزاد ودينازاد | ٧ - عبدالله البري وعبدالله البحري |
| ٢ - السندباد البحري | ٨ - أبو الحسن وجاريتة تودد |
| ٣ - قمر الزمان | ٩ - الحصان المسحور |
| ٤ - الصياد والعفريت | ١٠ - علي بن بكار وشمس النهار |
| ٥ - معروف الإسكافي | ١١ - علي الرزبقي ودليلة المحتالة |
| ٦ - الأحذب والخياط | ١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب |
| | ٣ - علي بابا |



دارالمعارف

قرش حيتية
٢,٥٠

C
2

٢١٧٦٦٥/٠٢